

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثالث

سورة البقرة

من الآية رقم ٢٥٣ / ٢٨٦

سورة آل عمران

من الآية رقم ١ / ٩٢

٦ - إن الظفر لا يتم للقائد إلا إذا أطاعه جنده في كل ما يأمر وينهى وعلى هذا مضت قوانين الجندية في العصر الحديث .

٧ - إن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة إذا اختبرت وثبتت وأطاعت رؤساءها ، والتجارب والمشاهد تدل على صدق هذا .

٨ - إن من سنن الله في خلقه دفع الناس بعضهم بعضا ، وهو المعبر عنه في العصر الحديث (بنظرية تنازع البقاء) ، ومن ثم قالوا إن الحرب طبيعية في البشر ، إذ بها يبقى الأصلح والأمثل وإلى هذا يشير سبحانه : ﴿ فَمَا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أن سنة الله أن يقذف زبد الباطل الضار بالمجتمع ويمحوه من الوجود ، ويبقى إبريز الحق النافع الذى ينمو فيه عمران العالم ، ويحفظ به الخلق من أعاصير الظلم والفساد حتى يتغلب الخير على الشر والحق على الباطل ولا يزال هذا سنة الوجود مابقى الإنسان على ظهر البسيطة .

حديث عن الرسل

* تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٦﴾

لما خاطب الله تعالى رسوله ومصطفاه خطابا أكد فيه إثبات الرسالة له فقال : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ (١) ، أكد بعد ذلك شيئا عن هؤلاء المرسلين فقال : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ . نعم لقد اقتضت مشيئة البارئ جل شأنه أن يفضل بعض المخلوقات على البعض الآخر : ففضل جبريل على جميع الملائكة ، وفضل مكة على جميع البلاد ، وفضل القرآن على جميع الكتب ، وفضل المسجد الحرام على جميع المساجد ، وفضل بعض الجبال على بعض كعرفات ، وفضل بعض الساعات على بعض كساعة الإجابة ، وفضل ليلة القدر على جميع الليالي ، وفضل يوم عرفات على جميع أيام السنة ، وفضل يوم الجمعة على أيام الأسبوع ، وفضل بنى آدم على كثير ممن خلق تفضيلا . قال رسول الله ﷺ في شأن يوم عرفة : (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة ويقول : ما

أراد هؤلاء ؟ (١) ، وقال ﷺ : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئاً إلا أعطاه إياه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة) (٢) ، وفضل بعض النساء على بعض : كمریم ابنة عمران ، وآسية زوج فرعون ، وخديجة زوج محمد ، وفاطمة بنت محمد . وفضل بعض الرسل على بعض كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وفضل محمداً ﷺ على جميع المخلوقات . وإذا كان بعض الرسل أفضل من بعض إلا أن الإيمان بهم جميعاً واجب . وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صدق الإسلام ، إذ أنه يأمر أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه مشدداً الوعيد على قوم كفروا بالله ورسله وفرقوا في الإيمان بين بعض الأنبياء والبعض الآخر فقال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ (٥) .

ثم وعد المؤمنين بالخير العميم والثواب الكريم فقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٦) .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو الإسلام ، وتحت لواء واحد هو قول « لا إله إلا الله » . قال ﷺ : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي « لا إله إلا الله ») (٧) . وقد جاء الإسلام يؤكد تلك الحقيقة ، ألا وهي وجوب الإيمان بكل الأنبياء دون تفریق . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٨) . وقد بين الله تعالى بعض وجوه التفضيل في قوله : ﴿ منهم من كلم الله ﴾ والمراد به موسى . قال تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ (٩) . وقال : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ (١٠) ، وقال : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ (١١) .

(٧) رواه الجماعة

(٨) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .

(٩) سورة النساء آية : ١٦٤ .

(١٠) سورة الأعراف آية : ١٤٣ .

(١١) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٧١١ ط دار الكتاب العربي .

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٢٨٦ ط دار الكتاب العربي .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٣٦ .

(٥) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٦) سورة النساء آية : ١٥٢ .

قوله تعالى : ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ المقصود به محمد ﷺ الذي خاطبه موله بقوله : «وعزني وجلالي لو سلكوا إلى كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد» ، إنه النبي الذي ذكى الله تعالى عقله فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ ^(١) ، وذكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ ^(٢) ، وذكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ^(٣) ، وذكى جليسه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ ^(٤) ، وذكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ ^(٥) ، وذكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ ^(٦) ، وذكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ^(٧) .

سیدی آبا القاسم یا رسول الله :

أنت الذى من نورك البدر اكتسى	والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك يا علم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى	أن تجمع الكتاب من معنالك
صلى عليك الله يا علم الهدى	ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

ولقد أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمحمد وأن ينصروه وأن يوصوا أتباعهم بذلك . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ^(٨) .

لقد رفع الله محمدا ﷺ درجات فمنحه الخلق الكريم . ولقد مدحه بما منحه فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ^(٩) .

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل	يُغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزة	تعرو الندى وللقلوب بكاء

(٦) سورة النجم آية : ١٧ .

(٧) سورة القلم آية : ٤ .

(٨) سورة آل عمران آية : ٨١ .

(٩) سورة القلم آية : ٤ .

(١) سورة النجم آية : ٢ .

(٢) سورة النجم آية : ٣ .

(٣) سورة النجم آية : ٤ .

(٤) سورة النجم آية : ٥ .

(٥) سورة النجم آية : ١١ .

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هي غضبة للحق لا ضغن ولا شحناء

وقد رفع الله درجته لما جعل معجزته القرآن وهي المعجزة الخالدة على مر العصور والأزمان : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (١) .

وقد رفعه الله درجات عندما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس . قال ﷺ متحدثا بفضل الله عليه : (ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) (٢) .

وروى عنه أنه قال : (فضلت على الأنبياء بست : أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون) (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، المقصود بالبينات المعجزات الدالة على صدق نبوته ، كإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وإحياء الموتى بإذن الله . والمقصود بروح القدس أى الروح المقدس الطاهر ، وهو الأمين جبريل . وأيدناه أى قويناه . وقد جاء ذكر صاحب الدرجات العلا سيدنا محمد ﷺ بين موسى وعيسى لأنه صاحب الأمة الوسط . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (٤) .

بعد ذلك قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ أى لو أراد الله عدم اقتتال الناس بعد أنبيائهم ما اقتتلوا ، وأى داع يدعو إلى الاقتتال بعد وضوح الحجة وجمي البينات ؟ لكنهم اقتتلوا لما اختلفوا فصاروا بين مؤمن وكافر ، فوقع الصراع المير بين الفريقين . ثم قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ أى لرفع الخلاف والاختلاف من بينهم ، وهو السبب الذى أدى للاقتتال . قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (٥) .

قوله جل شأنه : ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ ، أى أنه سبحانه ﴿ يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون ﴾ (٦) فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته : « عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد » .

(٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٥) سورة هود الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

(٦) سورة القصص آية : ٦٨ .

(١) سورة الاسراء آية : ٩ .

(٢) صحيح البخارى .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٢١٦ ط دار الفكر .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيري ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى

الحث على النفقة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ
وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

هذا خطاب كريم من رب كريم بصفة كريمة هى الإيمان : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وقد جاءت آية الأمر بالإنفاق بعد آية الرسل لتفيد أن الإنفاق مما جاءت به الرسل وأمرت به الأمم فإذا كان الإيمان يمحى القلوب فإن الإنفاق يمحىها أيضا بإزالة الشحناء والبغضاء منها . وقد جاء الحث على الإنفاق ترغيبا مرة وترهيبا أخرى . جاء ترغيبا فى قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾ (١) . وجاء ترهيبا فى هذه الآية . ذلك لأن النفوس مختلفة المنازع والمذاهب والمشارب فالعبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة . وعندما أمر الله بالإنفاق قرن الأمر بقوله ﴿ مما رزقناكم ﴾ أى أن المال ماله والأرزاق من عنده ، فما الغنى إلا موظف فى مال الفقير . قال تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ (٢) . وقال النبى ﷺ : (صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفى غضب الرب وصلة الرحم تزيد فى العمر) (٣)

وقال : (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء) . كما بين أن للإنفاق وظائف اجتماعية فقال : (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء) (٤) . وليست الزكاة منة يمن بها الغنى على الفقير إنما هى حق معلوم كما أنها ذمة وفريضة . قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ (٥) . وقال فى الحديث القدسى الجليل : (الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى . فإذا بخل وكلائى على عيالى أخذتهم ولا أبالى) (٦) . وقد أخبر الصادق المعصوم أنه ما منع قوم الزكاة إلا منعوا القتر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . وقد رغب الله تعالى فى الإنفاق فقال فى الحديث الجليل : (أنفق أنفق عليك) (٧) . وقال النبى ﷺ : (صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا) (٨) . وما أجمل ما قاله الله تعالى : ﴿ وأنفقوا خيرا لأنفسكم ﴾ (٩) ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١٠) . ﴿ إن تقرضوا

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٥ .

(٢) سورة الحديد آية : ٧ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٠٠ ط دار الفكر .

(٤) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٣ ص ٧٦٥ .

(٥) سورة المعارج الأيتان : ٢٤ ، ٢٥ .

(٦) الجامع الصغير المرجع السابق .

(٧) الأحاديث القدسية ص ١٦٠ ص المجلس الأعلى .

(٨) الجامع الصغير المرجع السابق .

(٩) سورة التين آية : ١٦ .

(١٠) سورة الحشر آية : ٩ .

الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴿١﴾ . وما أجلُّ قوله جلُّ شأنه : ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ ﴿٢﴾ .

وما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم ارزق خلفاً ويقول الآخر : وارزق ممسكاً تلفاً .

وقد حذر الله تعالى من إتيان يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعاة ، وهو كما قال جلُّ شأنه : ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ ﴿٣﴾ .

وما أجلُّ ما حكاه القرآن الكريم عن إبراهيم يدعوره فيقول : ﴿ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ﴿٤﴾ ، فياله من يوم ما أطوله . ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله . أما اليوم فيقول فيه تعالى : ﴿وانفقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ ﴿٥﴾ . وأما الهول فيقول فيه تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ ﴿٦﴾ . وأما الجبار فهو الذي يقول : ﴿لمن الملك اليوم الله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ ﴿٧﴾ . وهو الذي يقول : ﴿وانذرهم يوم الأزفة إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ ﴿٨﴾ . فلا بيع في هذا اليوم : أي لا فدية ، ولا خلة أي لا صداقة ولا شفاعاة : أي لا شفيع يرفع منازل بالنفوس وحقاق بها ، ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ لأنهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم : ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ ﴿٩﴾ . قال تعالى : ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ ﴿١٠﴾ .

آية الكرسي

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ

- (٦) سورة الحج آية : ١ ، ٢ .
 (٧) سورة غافر آية : ١٦ ، ١٧ .
 (٨) سورة غافر آية : ١٨ .
 (٩) سورة الملك الآيات : ٦ - ٩ .
 (١٠) سورة الزخرف آية : ٧٦ .

- (١) سورة التباين آية : ١٧ .
 (٢) سورة محمد آية : ٣٨ .
 (٣) سورة إبراهيم آية : ٣١ .
 (٤) سورة الشعراء آية : ٨٧ - ٨٩ .
 (٥) سورة البقرة آية : ٤٨ .

إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

يقول ابن كثير :

جاء في فضل تلك الآية أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ : - روى الإمام أحمد بإسناده إلى أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله : (أى آية في كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم فرددها مرارا ثم قال : آية الكرسي . قال : ليهنك العلم أبا المنذر والذي نفسى بيده إن لها لسانا وشفيعين تقدس الملك عند ساق العرش) .

- عن عبد الله بن أبي بن كعب أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر ، قال فكان أبي يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة شبيهة الغلام المحتلم قال : فسلمت عليه فرد السلام قال : فقلت ما أنت ؟ جنى أم إنسى . قال : جنى . قال : قلت ناولنى يدك قال : فناولنى يده فإذا يد كلب وشعر كلب . فقلت : هكذا خلق الجن ؟ قال لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى ، قلت فما حملك على ما صنعت ؟ لقد بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحبينا أن نصيب من طعامك قال فقال له أبى فما الذى يجيرنا منك ؟ قال هذه الآية « آية الكرسي » ثم غدا إلى النبي ﷺ فأخبره فقال النبي ﷺ : (صدق الخبيث) .

- عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته فقال : « أى فلان هل تزوجت ؟ » قال : لا وليس عندى ما أتزوج به قال : « أوليس معك . قل هو الله أحد » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : أليس معك « قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : أليس معك « إذا زلزلت ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : ليس معك « إذا جاء نصر الله ! » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : ليس معك « آية الكرسي » « الله لا إله إلا هو » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » .

- وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو فى المسجد فجلست فقال : « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت : لا . قال : « قم فصل » قال : فقممت فصليت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : قلت يا رسول الله أول للإنس شياطين ! قال : نعم . قال : قلت يا رسول الله ، الصلاة قال : خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال : قلت يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فرض مجزى وعند الله مزيد » قلت يا رسول الله فالصدقة ، قال : « أضعاف مضاعفة ، قلت يا رسول الله فأبها أفضل ، قال : جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ، قال « آدم » قلت يا رسول الله ونبى كان . قال : « نعم نبى مكلم » . قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟ . قال : « ثلثمائة وبضعة عشر جما غفيرا » وقال مرة « وخمسة عشر » قلت يا رسول الله أى ما أنزل عليك أعظم ، قال : آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

- وقد ذكر البخارى فى كتاب فضائل القرآن : عن أبي هريرة قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان

فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة قال : فخليت عنه فأصبحت . فقال النبى ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قال : قلت يا رسول الله شكاً حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال : «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال لا أعود . فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قلت يا رسول الله شكاً حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال : «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات ، انك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت وما هى : قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» حتى تختتم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «ما فعل أسيرك البارحة» قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله . قال : «ما هى» . قال لى إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وقال لى لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شىء على الخير فقال النبى ﷺ : «أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة» قلت لا قال : «ذاك شيطان» .

- وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لكل شىء سنام وسمام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة أى القرآن : آية الكرسي» .
- روى الإمام أحمد بإسناده عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» و«الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم» «إن فيها اسم الله الأعظم» .
- عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» .
- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ «حم» المؤمن إلى «إليه المصير» وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح»^(١) .

تفسير الآية :

أخبر الله جل جلاله عن ذاته بأنه لا إله إلا هو أى هو المتفرد بالسلطان والجلال والوحدانية وهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عذاه ، سبحانه تنزه عن الشريك ذاته ، وتقديست عن مشابهة الأغيار صفته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد بلا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٠ - ٤٥٥ ط الشعب .

عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . سبحانه هو القائل في الحديث القدسي الجليل : أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملك وملك الملوك . قلوب الملوك في يدي^(١) .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجي	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهباً وكل الكائنات تمجد
أنت الإله الواحد الحق الذي	كل القلوب له تقرر وتشهد

يا أخا الإسلام : انظر إلى السماء وارتفاعها، والشمس وشعاعها، والأفلاك ومدارها، والبحار وأمواجها والأرض واتساعها . الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويعلم عن شكره ولا يغفل عن ذكره . ثم انظر إلى كل ظاهر وكامن ومتحرك وساكن . كل شيء قائم به . وكل شيء خاشع له . قوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف وعز كل ذليل وغنى كل فقير . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه . أخبر جل جلاله عن ذاته بأنه الواحد وهذا مركز في طباع الخلائق . ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون^(٢) . ثم أخبر سبحانه بأنه الحي ، والحياة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تصحح الانصاف بصفات الكمال من علم وإرادة وقدرة وسمع وبصر وكلام . وإذا كان غير الله قد يوصف بأنه حي إلا أن حياته ليست لذاته إنما هي مكتسبة من الله جل شأنه . أما حياة الله فإنها واجبة لذاته لا يعترها الفناء . قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾^(٣) .

كما وصف سبحانه ذاته بالقيومية ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو القائم على تدبير ملكه ؛ فالأمر أمره والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾^(٤) . فمن صفاته جل شأنه أنه القائم بذاته غير محتاج إلى غيره : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ سيقولون لله^(٥) . ومن صفاته جل شأنه لا يغفل ولا ينام . قال سبحانه: ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ المقصود بالسنة النعاس وهو أخف من النوم ومعنى لا تأخذه أى لا تغلبه . وهذا أسلوب في الترقى أى أنه جلت قدرته لا يغلبه النعاس ولا ما هو أشد منه وهو النوم ، ذلك لأن النعاس والنوم من باب الضعف البشري والله هو القوى العزيز وهو ذو القوة المتين فمن الذى يدبر الأمر إذا نام . سبحانه علا فقهر وملك فقدر وبطن فخبر لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل . إذا كان ثلث الليل الأخير نادى : هل من تائب فأتوب عليه، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر

(١) الأحاديث القدسية ط المجلس الأعلى .

(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) سورة الفرقان آية : ٥٨ .

(٤) سورة الروم آية : ٢٥ .

(٥) سورة المؤمنون الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

فأغفر له . سبحانه ربى أستحى أن أسألك وأنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت . إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

أنت الذى تهب الكثير وتجب بحر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

جاء فى الصحيح عن أبى موسى قال : قام فىنا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجاب النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) (١) .

وعن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أن موسى عليه السلام سأل الملائكة : هل ينام الله عز وجل ؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ، ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروهما أن يكسرها قال : فجعل ينعس وهما فى يده فى كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب إحداها بالأخرى فكسرها . قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول : فكذلك السماوات والأرض فى يده (٢) .

قوله تعالى: ﴿ له ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾ تقديم الخبر يدل على الحصر والقصر أى أن ما فى السماوات وما فى الأرض ملك له سبحانه لا يشاركه أحد فيه ، والله تعالى المثل الأعلى ، فقد تنزه عن كل الشركاء ولا يشرك فى حكمه أحدا وهو القائل : ﴿ يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ (٣) وقد فصل هذا الشأن فى قوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (٤) .

يقول ابن كثير :

قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ هو كقوله جلَّ شأنه: ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وكقوله جلَّ شأنه: ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وكقوله: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وكقوله جلَّ شأنه: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ .

جاء فى حديث الشفاعة «أتى تحت العرش فأخر ساجدا فیدعنى ما شاء الله أن يدعنى . ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع — قال : فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة» (٥) .

(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ ط الشعب .

(٢) المرجع السابق

(٣) سورة الرحمن آية : ٢٩ .

قوله تعالى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ . هذا إخبار عن علمه تعالى والعلم صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها جميع الكائنات . والله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (١) .

قال النبي ﷺ : (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أفلتكم . فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذا لا تستطيعون الخروج من علم الله . وكما لا تحملكم السماء والأرض على فعل الذنوب كذا لا يحملكم علم الله) (٢) .

ومعنى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم : الإحاطة والشمول . فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ أى لا يعلمون ذاته أو صفاته إلا بما أعلمهم به سبحانه ، وهو معنى قوله جل شأنه ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أى إلا بما أعلمهم عن طريق الوحي . قال سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾ إلا من ارتضى من رسول ﴿ (٣) . فلا إحاطة من شيء من علم الله إلا بمشيئة الله . وهذا الكون لا تطرف فيه عين ولا تهب فيه نسمة هواء ولا يحدث فيه حدث كبير أو صغير إلا بإذن الله .

قوله تعالى ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ . قال ابن عباس : كرسيه أى علمه . وقال آخرون : الكرسي موضع القدمين . وعن ابن عباس قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ قال : «كرسيه موضع قدميه ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» . قال ابن زيد : حدثني أبى قال : قال رسول الله ﷺ : «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» . وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» (٤) .

قوله تعالى ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أى لا يثقله ولا يتعبه حفظ السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما . ﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (٥) وقال سبحانه : ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿ (٦) . قوله تعالى ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ أى كقوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (٧) فالحمد لله الذى وصف ذاته بما هو أهل له ، فهو رفيع الدرجات ذو العرش وهو الكبير الذى لا تدرك العقول مدى عظمته . فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

(٥) سورة الأنعام آية : ١ .

(٦) سورة سبأ الآيتان : ١ ، ٢ .

(٧) سورة الرعد الآية : ٩ .

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩ .

(٢) ابن كثير المرجع السابق .

(٣) سورة الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ط الشعب .

لا إكراه في الدين

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

المفردات: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ : أى لا إكراه في دخول الدين . وبان الشيء واستبان : وضع وظهر ،
ومنه المثل : تبين الصبح لدى عيني . والرشد : بالضم والتحريك والرشد : الهدى وكل خير وضده الغي
والجهل كالغي إلا أن الأول في الاعتقاد والثاني في الأفعال ومن ثم قيل زوال الجهل بالعلم وزوال الغي
بالرشد . والطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة الحد في الشيء ويجوز تذكيره وتأنيسه وإفراذه وجمعه بحسب
المعنى كما قال تعالى ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ وقال « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به »
والعروة من الدلو والكوز ونحوهما : المقبض الذي يمسك به من يأخذها والوثقى : مؤثث الأوثق وهو الحبل
الوثيق المحكم . . والانفصام : الانكسار أو الانقطاع من قولهم فصمه فانفصم أى كسره أو قطعه .
والولى : الناصر والمعين ، والظلمات : هى الضلالات التى تعرض للإنسان فى أطوار حياته كالكفر
والشبهات التى تعرض دون الدين فتصد عن النظر فيه أو تحول دون فهمه ، والإذعان له كالبدع والأهواء
التي تحمل على تأويله وصرفه عن وجهه والشهوات التي تشغل عنه .

يروى فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من
الأنصار ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً . فقال للنبي ﷺ : ألا استكرههما :
فإنهما قد أبيا إلا النصرانية . فأنزل الله الآية . وفى بعض الروايات أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبي
ﷺ فقال : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فنزلت فخلاهما (١) .

لما كان الإسلام يخاطب الناس بالمنطق السديد والعقل الرشيد ، ما كان فى أدنى حاجة إلى إكراه أحد
على الدخول فيه ولقد نطقت آية الكرسي بأصول العقائد من توحيد خالص وصفات خاصة بالله وحده ، فهو
الحى القيوم الذى لا يغلبه نعاس ولا نوم ولا تعتريه غفلة ولا غيبة قال تعالى « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا
غائبين » وقال تبارك اسمه ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٢) وقد جاء فى آية
الكرسي أن الله وحده له ملك السموات والأرض كما أن علمه شمل الأزمان كلها وأحاط بالكون كله وأنه هو

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٩ ط الشعب .

(٢) سورة المؤمنون آية : ١٧ .

العلی العظیم فقد تبین من هذا أن الفطرة السلیمة لا تعارض صفة من صفات الألوهية ولا تناقض أصلاً من أصول الإسلام ، قال تعالی ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١) وقال جل شأنه: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢) إن الطريق لائح وإن الحق واضح وإن المنادی صائح ؛ وقد بدا الصبح لذی عینین ، وبرح الخفاء وتبین الرشد من الغی والحق من الباطل والهدی من الضلال فكيف يكون هناك إكراه على دخول الدين . . إن الإسلام عقائد وقواعد وتصديق ، وكل هذه مركوزة في القلب وما في القلب لا سلطان لأحد عليه إلا الله وحده قال تعالی : «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (٣) وقال جل شأنه «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» (٤) وقد ذكر الله تعالی بعد ذلك أن توحيد الله يقتضى الكفر بالطواغيت أيا كانت صورها فكل ما عبد من دون الله يخالف التوحيد وكل من تجاوز الحد في الطغيان يجب ألا يكون له مكان في قلوب الموحدين . وبعد تخلية القلب عما سوى الله يكون الإيمان الخالص ويكون الاستمسك بالعروة الوثقى والصلة القوية قال جل شأنه : ﴿ فمن يكفر بالطواغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ . وهذا مؤشراً قوياً يدل دلالة صادقة على بشاشة الإيمان إذا خالطت شغاف القلوب لا يمكن أن تنفصم أو تنفصل عن قلب المؤمن إنها تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، ﴿ والله سميع عليم ﴾ سميع لأقوال العباد عليم بأحوالهم . وبعد الإيمان بالله والكفر بالطواغيت يطمئن الله المؤمن بأنهم مولاهم وناصرهم ومعينهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى ، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء وإنما جمع الظلمات وأفرد النور لأنها كثيرة متنوعة فهناك ظلمة الشبهات وظلمة الشهوات وظلمة الشرك وظلمة الهوى وظلمة النفاق إلى غير ذلك ، أما طريق النور فإنه واحد لأنه الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » أما الكافرون الذين عبدوا الطواغوت وأطاعوا أمره فإنه وليهم والطواغيت أنصارهم يضلونهم بغير علم ويخرجونهم من نور الحق إلى ظلمات الكفر ، هؤلاء محكوم عليهم بالخلود في النار . نسأل الله العافية .

الذى حاج إبراهيم في ربه

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

المفردات : الاستفهام للتعجب والإنكار . وحاج : جادل وقابل الحجة بالحجة . فبهت : أى صار مبهوراً

(١) سورة البقرة آية : ١٣٨ .

(٢) سورة الروم آية : ٣٠ .

(٣) سورة يونس آية : ٩٩ .

(٤) سورة الكهف آية : ٢٩ .

دهشاً وأخذ الحصر من سطوع نور الحجة فلم يجد جواباً . الظالمين : أى المعرضين عن قبول الهداية بالنظر فى الدلائل القاطعة التى توصل إلى معرفة الحق .

هذا مثل واقعى لطاغوت من طواغيت الأرض . إنه النمرود بن كنعان على عهد ابراهيم الخليل ، جادل فى شأن رب العالمين وكان جداله سفسطة وتضليلاً ومكابرة ، والذى دفعه إلى ذلك طغيانه وتجبره ؛ فقد نسى نفسه وتلك أقصى مراحل الضلال أن ينسى الانسان نفسه فينسى ربه قال تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ (١) وقال جل شأنه : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) قال الحسن رضى الله عنه : عجبت لابن آدم ، يتكبر على الله وهو حفنة من التراب تداس بالأقدام . . كيف يتكبر على الله وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة وهوين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة تبتته عرقه وتؤذيه بقة وتقتله شرقة .

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته	انظر خلاك ، فإن التثن تشريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم	ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً	اقصر فإنك مأكول ومشروب

رضى الله عن أبى بكر الصديق ؛ أرسل إلى كسرى عظيم الفرس إنذاراً شديداً باللهجة قال له ياكسرى : كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة من صلب أبك ومرة من رحم أمك . لك العظمة والكبرياء يارافع السماء بلا عمد .

أتيت القبور فناديتهما	فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه	وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعاً فما غبر	وماتوا جميعاً ومات الخبر
فيا سائلى عن أناس مضوا	آمالك فيما مضى معتبر

ماذا قال النمرود الذى أطغاه ملكه . قال لإبراهيم أنا أحيى وأميت . . قالها تعقيباً على حقيقة نطق بها إبراهيم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت ﴾ قال النمرود : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ كيف كان ذلك جاء برجلين وأصدر حكمه عليهما بالإعدام فخفف الحكم عن واحد فادعى بذلك أنه أحياء ونفذ الحكم فى الآخر فادعى أنه أماته ، وهكذا يفعل الضلال بأهله . . تهريج وفوضى ضاربة أطنابها ، لقد نسى أو تناسى أن الإحياء والإماتة شأن من شئون الله ، فالإحياء يكون بنفخ الروح ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (٣) . وكما أن الحياة مخلوقة فإن الموت أيضاً مخلوق قال سبحانه : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿ (٤) ولما كان النمرود ﴿ يجادل فى الله بغير علم ولا

(٣) سورة الاسراء آية : ٨٥ .

(٤) سورة الملك الآيتان : ١ ، ٢ .

(١) سورة التوبة آية : ٦٧ .

(٢) سورة الحشر آية : ١٩ .

هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله ﴿١١﴾ أفحمه الخليل بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ﴾ ودهش وأندحر ، بعدما ألقم الحجارة في حلقة ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنهم اختاروا الظلم منهجا والجدل سبيلا والباطل طريقا فاستحقوا أن يجرموا نعمة الهداية .

الذي مر على قرية

أَوَكَلَّ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظَرُوا إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

هذه الآية ساقها الله تعالى دليلا على أنه هو الذي يحيى ويميت إحياء حقيقيا ، لا كما صنع طاغية الأرض النمرود فهذا عزيز يمر بقرية ، المشهور أنها بيت المقدس وقد خربها (بختنصر) فأصبحت ساقطة العروش والجدران على الأرض فسأل نفسه متعجبا أنى يحيى هذه الله بعد موتها . . أى كيف يحيى الله أهل هذه القرية وقد أصبحوا بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى أجسادا هامدة ورفاتا سحيقا وصعيدا جرزاً . فجاءت الإجابة من الله عملية مطبقة عليه ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه وساق الملك إليه هذا السؤال كم لبثت ؟ فأجاب العزيز لبثت يوما أو بعض يوم ؛ ذلك لأنه مات بعد طلوع الشمس وبعثه الله بعد مائة عام عند غروبها فقال له الملك بل لبثت مائة عام وهكذا يطوى الموت الزمن تأتى أقوام وتموت أقوام ويدرك الناس الموت والإعدام ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

تأمل في الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

ذكر المفسرون أن الله تعالى أحيا عينيه أولا فأبصرت بإذن الله ليرى الحياة وهى تسرى فى جميع أوصاله وكان معه طعام وشراب فلم يتغير الطعام ولا الشراب كان معه كما ذكر المفسرون عصير وتين وعنب فلم يتغير العصير ولم يفسد التين ولم يحف العنب وكان معه حمار يركبه فأمره الله أن ينظر إليه والحياة تسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر كما أمره أن ينظر إلى العظام كيف ينشزها الله أى يرفعها من الأرض ويعيدها إلى أماكنها بترتيب ونظام ثم يكسوها لحما أصله الخلايا التى قامت بتكوين الأنسجة التى قامت بتكوين الأعضاء التى

قامت بتكوين الأجهزة وسبحان القائل ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا مضغة فخلقنا مضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهيمن باق

فلما تبين للعزير كيف أحيا الله أهل هذه القرية بعد موتها أقر بلسانه وقلبه قائلاً أعلم أن الله على كل شىء قدير . نعم وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليهما قديراً .

إبراهيم وإحياء الموتى

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

المفردات: ﴿فصُرهن﴾ : أى ضمهن ، ﴿سعيًا﴾ : أى مسرعات طيراناً ومشياً ، وعزير : أى غالب على أمره ، حكيم : أى لأنه جعل أمر الإعادة وفق حكمة التكوين .

قال ابن كثير :

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام : أسباباً منها أنه لما قال النمرود ﴿ربى الذى يحى ويميت﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرنى كيف تحى الموتى) . قال : أو لم تؤمن . قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي) . فلم يكن سؤال إبراهيم شكاً ومعاذ الله أن يكون كذلك ، فإبراهيم هو الذى قال الله تعالى فى شأنه ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (١) روى الامام البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) (٢) يريد الرسول ﷺ أن يقول ما شك إبراهيم عندما سأل الله هذا السؤال لأننا أحق بالشك منه فقد أمرنا باتباعه وحيث انتفى الشك عن التابع فإنه بالأولى ينتفى عن المتبوع قال شراح الحديث : لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحى الموتى وإنما شكوا فى أنه هل يجيئهما إلى ما سألا . وقال أبو سليمان الخطابى ليس فى قوله نحن أحق بالشك من

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ط الشعب .

(١) سورة الأنعام آية : ٧٥ .

ابراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفى الشك عنها ، يقول إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فأبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع ، وكذلك قوله « لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي » . والمراد بالداعي ما جاء في قوله تعالى ﴿ وقال الملك اتئثوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ (١) كأنه ﷺ يريد أن يقول اسألوا الله العافية ، وسؤال إبراهيم لا يفيد شكاً ولكنه من قبل زيادة علم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال ، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم : شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه .

قوله تعالى ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ فنفذ إبراهيم أمر ربه ، فأخذ أربعة من الطير لم يعين الكتاب العزيز أنواعها ، إذ لا طائل تحت بيان أنواعها حتى لا يشغل الذهن بها عن القضية الحقيقية ، ومع إحياء الموتى وذبح إبراهيم الطير ونفث ريشه وخلط أجزائه بعضها ببعض ، ووضع كل جزء منها على جبل ونادى عليها فأحيهاها الله بعدما اختلف بعض أجزائها في بعض ، وجاءت تسعى ترفرف بأجنحتها ، وسبحان القائل : ﴿ ثم ادعهم يأتينك سعيًا ﴾ وهذا أيضا إحياء حقيقي بعدما اختلطت العظام باللحم وهذا الإحياء رد مفحم لعدو الله نمرود الذي قال أنا أحيى وأميت .

قوله تعالى ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ المراد من الأمر بالعلم الدوام عليه كما في قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٢) والعزيز هو الذي لا يغلب والحكيم هو الذي تنزه فعله عن العبث .

مثل للانفاق في سبيل الله

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ ﴿٢١١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَآوِلًا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١٢﴾ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢١٣﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٤﴾

(١) سورة يوسف آية : ٥٠ .

(٢) سورة النساء آية : ١٣٦ .

المفردات: ﴿سبيل الله﴾ ما يوصل إلى مرضاته تعالى . الحبة : واحدة الحب وهو ما يزرع ليقتات به ، المن : أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ويظهر به تفضله عليه ، والأذى : أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه كأن يقول له : انى قد اعطيتك فبا شكرت قول معروف : أى كلام حسن ورد جميل على السائل كأن يقول له : رزقك الله أو عد إلى مرة أخرى أو نحو ذلك . ومغفرة : أى ستر لما وقع منه من الإلحاف في السؤال وغيره مما يثقل على النفوس احتماله : وخير : أى أنفع وأكثر فائدة . رثاء الناس أى مراعاة لهم لأجل أن يروه فيحمدوه ولا يقصد ابتغاء رضوان الله بتحري ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوذين وترقية شأن الأمر بالقيام بما يصلح شئونها فمثله : أى قصته . وصفوان : أى حجر أملس . والوايل : المطر الشديد والصلد : الأملس الذى ليس عليه شيء من الغبار ويقال فلان لا يقدر على درهم : أى لا يجده ولا يملكه .

أخرج ابن ماجه عن على وأبى الدرداء ، كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ قال : (من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم)^(١) وعن معاذ بن جبل أن الغزاة المنفقين قد خبا الله لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عن علم العباد .

بعدما بين الله تبارك وتعالى أن البعث حق وبين حقيقتين على ذلك ، أولاهما الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فأمات الله مائة عام ثم بعثه ، والحقيقة الثانية إحياء الطير عندما سأل إبراهيم ربه ﴿رب أرنى كيف تحمى الموتى﴾ وكان فى الموقفين إحياء للأجساد ، جاءت آية الإنفاق بعد ذلك لتكون مثلاً على إحياء النفوس التى مسها الضر وعضها الفقر بنابه ، فجاءت الآية ترغيباً للنفوس لتنفق مما رزقها الله ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾^(٢) ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد﴾ وجاءت آية الترغيب فى الإنفاق فى صورة مثل رائع وتصدير بديع إنها كحبة أنبتت سبع سنابل لأنها زرعت بأرض خصبة جيدة وهى حبة واحدة لكن ساقها أراد ربك أن يحمل سبع سنابل ، وكل سنبل منها فيها مائة حبة ولا يقتصر الأمر على ذلك ، أى على سبع مائة بل قال تعالى : ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ لأنه واسع الرحمة عليهم بنيات المنفقين . قال داود يارب كيف يستطيع العبد أن يملأ كفة الميزان حسنات ؟ قال له : يا داود . إذا تصدق بنصف ثمرة لا يقصد بذلك إلا وجهى . وفى هذه الآية حقيقة علمية ، فقد عنى بتطبيق هذا المثل علمياً بعض أعضاء الجمعية الزراعية بمصر فى مزارع القمح التى تملكها فى التفتيش النموذجى وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبله واحدة بل أكثر وقد وصلت أحياناً إلى أربعين وأحياناً إلى ست وخمسين وأحياناً إلى سبعين كما دلثهم أيضاً على أن السنبله الواحدة تنبت أحياناً ستين حبة أو أكثر وقد عثر فى عام ١٩٤٢ أحد مفتشى الجمعية على سنبله أنبتت سبعاً

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٩ ط الشعب .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٧ .

ومائة حبة ، وعرض نتيجة بحثه على الأخصائيين من رجال الجمعية وغيرهم في حفل جامع ورأوا تلك السنبلة وعدوها عدا فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدّ ورأى وشكروه على جهوده الموفقة .

وبعد ما حث الله تعالى على الصدقة ورغب فيها دعا المتصدق إلى الالتزام بآداب الصدقة فقال ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجراً عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ذلك لأن للصدقة آداباً وتخلقا يجب على المتصدق أن يلزمها ، من هذه الآداب أن يكون المقصود بالصدقة وجه الله وحده ومنها ألا يمن على الفقير كأن يقول له لقد أحسنت إليك ولي الفضل عليك ويذيع على الناس إحسانه وهو لا يدرى أن ذلك يبطل ثواب صدقته مع أن الله بين هذا في كثير من آيات الكتاب كذلك من آدابها ألا يؤذى الفقير بأن يقول له لقد أحسنت إليك ولم تشكرني ولم تعترف بالجميل ، مع أن رسول الله ﷺ يقول : « أفضل الصدقة الصدقة على ذا الرحم الكاشح »^(١) أي الذي يضمّر السوء والبغضاء لأنك بالصدقة عليه تكون قد أطفأت نار حقه ، وتكون قد جاهدت نفسك وخالفت شيطانك فأصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله .

ازرع جيلاً ولو في غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصنه إلا الذي زرعا

هؤلاء الذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيت أنفسهم ، ولم يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى لهم الأجر العظيم عند الله ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا يحزنون على ما مضى فإن لم يكن هناك ما تصدق به ، فقول معروف وكلمة طيبة ومغفرة وستر على حال المسكين ، خير من صدقة مقترنة بالأذى ، ذلك لأن الإسلام يحترم الإنسانية في الإنسان ولا يرضى بتصفير الوجوه ، وقد صدق من قال : « نزع بحرین بغربالین وحفر بثرین بإبرتين وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين خير لي من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء وجهي » . وليعلم هؤلاء أن الله غنى حلیم ، غنى عن عباده ولكنه حلیم بهم ، يدعوهم إلى ما يصلح أحوالهم « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

ثم خاطب الله أهل الإيمان أن يلتزموا التزاماً شديداً بآداب الصدقة وألا يبطلوها بالمن والأذى ، وإن مثل من تصدق ثم أتبع الصدقة بالمن والأذى كمثل حجر عليه تراب فهبطت عليه السماء من مائها فغسل الماء الغزير ما على الحجر من تراب فتركه صليداً أملس ناعماً ، كذلك المن والأذى يغسل ويمحو ثواب الصدقة فتقلب لا ثواب عليها ، فهل يقدر أحد على شيء مما كسب ، لأن المالك الحقيقي هو الله فما دمت عاجزاً أيها

(١) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي ج ١ ص ١٦٠ ط دار الفكر .

الإنسان لا تقدر على شيء من كسبك لأن الرزق بيد الله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطمعون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿ (١) ﴾ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وأشكروا له إليه ترجعون ﴿ (٢) ﴾ والله لا يهدي القوم الكافرين لأنهم اختاروا الكفر طريقاً ، لذلك لا يعملون لله شيئاً إذا أنفقوا بقصد الرياء ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إذ لو آمنوا بالله وأنفقوا ابتغاء مرضاته ولو آمنوا باليوم الآخر لعملوا بقوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ (٣) هؤلاء مهملوا عملوا فسيحبط الله أعمالهم قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ (٤) .

الإنفاق ابتغاء مرضاة الله

وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٥﴾ أَيْبُودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ أى طلباً لرضوانه ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أى لتمكين أنفسهم في مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها عند بذلها بحيث لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص و ﴿ الجنة ﴾ البستان . و ﴿ الربوة ﴾ المكان المرتفع من الأرض ، وأشجار الربى أحسن منظراً وأزكى ثمراً للطاقة هوائها وفعل الشمس فيها . و ﴿ آتت أكلها ﴾ أى أعطت صاحبها أكلها . والأكل كل ما يؤكل والمراد هنا الثمر ، وضعف الشيء : مثله و ﴿ الطل ﴾ المطر الخفيف . والإعصار : ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم تنعكس منها إلى السماء حاملة الغبار فتكون كهيئة العمود ، والنار : أى السوم الشديد .

هذا مثل عظيم للذين ينفقون أموالهم لا يقصدون من وراء ذلك رياء ولا سمعة إنما يهدفون إلى أشرف غاية . ويقصدون بذلك أسمى هدف ، فهم لا يتبعون صدقاتهم بالمن والأذى ، إنما يريدون من وراء ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فذلك أقصى أمانهم كما يقصدون تثبيت أنفسهم وتمكينها من الإيمان بطرق السخاء فبذل المال فيه جهاد للنفس ، لأن حب المال رأس كل خطيئة ، إذا تمكن من القلوب ، وهذا هو الفرق بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبين ثعلبة بن حاطب . فالمال لم يستطع أن يتسرب إلى قلب الصديق ولم يقدر أن يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعه ، فكأنه في يديه ولم ينفذ إلى قلبه ، لذلك بذله بسهولة ويسر . وقد جاء بماله

(٣) سورة النحل آية : ٩٦ .

(٤) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

(١) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .

(٢) سورة العنكبوت آية : ١٧ .

كله يوم تجهيز جيش العسرة . جاء به إلى رسول الله ﷺ بنفس راضية مطمئنة . ولقد سألته الهادي البشير ﷺ : ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر ؟ . فرد على الفور تركت لهم الله ورسوله . أما ثعلبة فقد أغناه الله بعد فقر وبسط عليه الرزق بعد ضيق وعاهد الله إن آتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الشاكرين . فماذا كانت العقابة ؟ لقد طلب منه أن يؤدي حق الله في ماله فما كان جوابه إلا أن قال : لا أراها إلا أخت الجزية يقصد بذلك الزكاة . قال تعالى : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴿ ١ ﴾ . لقد تسربت الدنيا وحب المال إلى قلب ثعلبة وتمكن ذلك أيما تمكن ، فلم يكن من الميسور انتزاعه بعد ما أشرب قلبه بحبه وهكذا ضرب الله المثلين وصوّر لكل موقف ما يليق به : فالذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم مثلهم كجثة باسقة الظلال مغدقة الثمار بأرض عالية خصبة جيدة . أصابها مطر غزير فأعطت ثمارها ضعفين أى مثلين فقد بارك الله فيها وفي ثمارها فإن لم يصبها المطر الغزير أصابها مطر خفيف وهو الطل فلم تحرم الناس عطاءها وثمارها : كذلك أهل الجود والكرم يعطون دائما سواء أكان ما عندهم كثيرا أم قليلا . فهم على خير وبركة . أشربت قلوبهم بحب الكرم والعطاء . بل إنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ترى أحدهم في حبه للعطاء كما قال القائل :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت نائله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليثق الله سائله

إنهم تخرجوا في مدرسة عميدها أكرم الخلق الذي وصفه خالقه بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ فقد كان أجود من الريح المرسلة .

ماذا يقول المادحون وما عسى أن تجمع الكتاب من معنك
صلى عليك يا علم الهدى ما اشتاق مشتاق إلى مثواك
فقد كنت أكرم الخلق على الإطلاق :

له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البر أندى من البحر

قوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ : أى بصير بحال المنفقين . عليم بأعمالهم . إن كانوا ينفقون جريا وراء السمعة وحبا في الرياء أو كانوا ينفقون ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم . فما أجل ابتغاء مرضاة الله في الأعمال وليعلم المنفقون أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق وليكونوا واثقين بأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب . فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل) (٢) .

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٧ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٧ ط وزارة الأوقاف .

والمقصود بعدل : مقدار - طيب : حلال . والمراد باليمين كما قال القاضي عياض : لما كان الشيء الذى يرتضى ويعز يتلقى باليمين ويؤخذ بها استعمل فى مثل هذا واستعير للقبول والرضا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل) (١) .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له . وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتحبوا) (٢) .

وهكذا يبين ﷺ أن الإنفاق لله يجلب سعة الرزق ويقضى الحاجات ويكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول . ومعنى تحبوا : تحب دعواتكم وتغتنوا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول العبد مالى مالى . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فافتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس) (٣) .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة ، فقال النبى ﷺ : (ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها) (٤) .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التى كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسطرة	حتى سقاها بكأس الموت ساقها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنيها

قوله تعالى : ﴿ أبيض أحذكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ هذا تصوير قرآنى فى أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الرفعة لحال قوم اتبعوا الأعمال بالرياء والسمعة . كان لأحدهم جنة أى بستان عظيم اشتمل على أعظم الأشجار المثمرة من نخيل وأعناب ومياه الأنهار تجرى تحت الأشجار . وهذا البستان أعطى صاحبه من كل الثمرات فهذا هو الخير بعينه والنعيم والرفاهية . ثم هاجمه ، أى صاحب البستان ، الكبر وهذته السنون فهزمت فى بدنه العافية وذريته ضعفاء لا يقدرّون على شيء وإذا بالجنة التى كان فيها النخيل الباسقات والأعناب المثمرة تصيبها ريح عاصفة وإعصار فيه نار ، فتذرها قاعاً صفصفاً ورماداً تذروه الرياح بعدما احترقت الأشجار . هذه حال الذين عملوا للرياء والسمعة فأبطلوا أعمالهم كما قال سبحانه:

(٣) المصدر السابق ص ٧ .

(٤) المصدر السابق .

(١) المصدر السابق ص ٦ .

(٢) المصدر السابق .

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ (١)

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفيها إذا هي أقبلت ولا البخل يقيها إذا هي تذهب

وهكذا ويضرب الأمثال بين الله تعالى لعباده الآيات والأحكام لعلهم يتفكرون في الدنيا والآخرة حتى لا تنزل قدم بعد ثبوتها والله يقص الحق وهو خير الفاصلين .

الإنفاق من الكسب الطيب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٧﴾

المفردات : الطيب : هو الجيد المستطاب ، وضده الخبيث المستكره ، ولا تيمموا أى لا تقصدوا ، وتغمضوا : أى تتساهلوا وتتساعحوا من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره ، ويقال للبائع أغمض أى لا تستقص كأنك لا تبصر ، وحيد: أى مستحق للحمد على نعمه العظام .

إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ومن ثم فقد أمر عباده أن ينفقوا من جيد أموالهم التى اكتسبوها والتى أخرجها الله تعالى لهم من الأرض ، من الزروع والثمار والركاز والمعادن المختزنة فى باطن الأرض فكل هذه من رزق الله وفضله على عباده . وهو سبحانه المنعم . وشكر المنعم واجب وإخراج الزكاة سمة من سمات الشكر . وكما أمر تعالى بالإنفاق من الطيب الجيد فقد نهى عن الإنفاق من الخبيث الردىء فقال : ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أى لا تقصدوا وتعمدوا إلى ردىء الأموال فتخرجوها صدقة ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ (٢) . ثم بين سبحانه أمراً يتعلق بنفس المتصدق فقال : ﴿ولستم بآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أى لن تقبلوا أخذ الخبيث الردىء إلا إذا تساهلتم فى أخذه اضطراباً لحاجتكم إليه . واعلموا أن الله غنى عن أموالكم وصدقاتكم إنما يدعوكم إلى الصدقة ليعود عليكم خيرها وثوابها ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ (٣) . ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿٤﴾ . والله تعالى حميد كثير المحامد مستحق لشكر محامده وذلك بأعمالكم الطيبة ومنها الإنفاق من طيب الكسب .

عن أنس رضى الله عنه قال : (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بئرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال

(٣) سورة الحج آية : ٣٧

(٤) سورة الذاريات الآيات من ٥٦ : ٥٨

(١) سورة الفرقان آية : ٢٣

(٢) سورة آل عمران آية : ٩٢

أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ . قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ ، وإن أحب أموالي إلىَّ بَيْرُحَاء ، وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال : فقال رسول الله ﷺ : بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح (١) .

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : ما تقول في الصلاة ؟ قال : تمام العمل . قلت يا رسول الله : تركت أفضل عمل في نفسي أو خيرُهُ ؟ قال : ما هو ، قلت : الصوم ؟ قال خير وليس هناك . قلت يا رسول الله : وأى الصدقة وذكر كلمة . قلت : فإن لم أقدر ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بشق تمر . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر . فإنها صدقة تصدق بها على نفسك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : (تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً) (٢) .

وعد الله حق

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢١٩﴾

المفردات : ﴿ يعيدكم ﴾ أى يخوفكم . و﴿ الفقر ﴾ سوء الحال وضيق ذات اليد . و﴿ يأمركم ﴾ أى يغريكم . والمراد بالفحشاء هنا البخل . و﴿ المغفرة ﴾ الصفح عن الذنب . و﴿ الفضل ﴾ الرزق والخلف . و﴿ الحكمة ﴾ العلم النافع الذى يكون له الأثر فى النفس ، فيوجه الإرادة إلى العمل بما تهوى مما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

بعدما أمر سبحانه وتعالى بالإنفاق من طيبات الكسب حذر سبحانه من وعود الشيطان ذلك لأن الشيطان يعد ابن آدم الفقر إذا أنفق وضيق ذات اليد ويأمره بالفحشاء والمقصود بها هنا البخل . أما الله سبحانه وتعالى فوعده المغفرة والصفح الجميل والفضل العميم وسعة الرزق والله واسع الرحمة عليم بأحوال عباده . قال ﷺ : (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان) (٣) .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٥ ط الشعب .

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. الحكمة : حكم صواب وعلم غزير وعمل موفق ، وقد منَّ الله بها على عباده الذين اصطفى . . جاء في الدعاء الذي دعاه الخليل إبراهيم وابنه اسماعيل ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١) قال تعالى : ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ (٢) . فكانت هذه الآية استجابة لدعوة الخليل وابنه . ولقد منَّ الله بالحكمة على داود فقال : ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ (٣) وقال في حق لقمان : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله﴾ (٤) وقال في حق يوسف : ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما﴾ وقال في حق موسى : ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما﴾ . وقال في حق يحيى : ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ ، ومن دعاء الخليل إبراهيم : ﴿رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين﴾ (٥) . وقد ورد في معنى الحكمة أقوال نذكرها فيما يلي عن ابن كثير عن ابن عباس : المقصود بالحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

وعن مجاهد : الحكمة الإصابة في القول . وفي قول آخر لمجاهد لمعنى ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن .

وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة . وفي رواية أخرى : عنه أيضا : الحكمة : الكتاب والفهم . وقال أبو مالك : الحكمة السنة . وقال زيد بن مسلم : الحكمة العقل . . قال مالك : إنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله . . وما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله . . وقال السدي : الحكمة النبوة .

والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها ، وأعلاها النبوة والرسالة أنخص ولكن لا تباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبعية ، كما جاء في بعض الأحاديث : (من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه) (٦) .

قال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها) (٧) .

قوله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أي لا يعتبر ويتدبر ويتذكر ما تهدف إليه الحكمة وما فيها من خير كثير في الدارين إلا أصحاب العقول والنهى . نعم إن في الحكمة خيرا كثيرا فليست السعادة في

(٥) سورة الشعراء آية : ٨٣

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ ط الشعب

(٧) جامع الأحاديث للسيوطي ج ٧ ص ٣٤٨ .

(١) سورة البقرة آية : ١٢٩

(٢) سورة آل عمران آية : ١٦٤

(٣) سورة ص آية : ٢٠

(٤) سورة لقمان آية : ١٢

الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأمليد ، ولكن ترى السعادة في إشراق العقل وانتصار الذهن وتزكية النفس . وعلى عرش السعادة يتربع القول الكريم : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ (١) .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

النذر في اللغة : العزم على التزام شيء خاص فعلاً أو تركاً . وفي الشرع التزام طاعة تقرباً إلى الله تعالى ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه .

الإنفاق في سبيل الله عبادة إذا ابتغى بها وجه الله . يدرك ذلك أصحاب الألباب كما أن النذر عبادة وهو إلزام الإنسان نفسه بفعل طاعة كأن يقول : إن شفى الله مريضى فعلى إطعام كذا من المساكين أو فعلى صيام كذا من الأيام . ولا يجوز النذر إلا لله تعالى ، لأنه عبادة ، والمعبود هو الله وحده ويجب الوفاء به . قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً * يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ (٢) . ولا يكون النذر إلا بطاعة . فمن نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه . ولا يكون إلا في حدود ما يستطيع الإنسان . قال ﷺ : « ليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك » (٣) . فالنفقة والنذر من العبادات . وقد علق الله تعالى هذه العبادة بعلمه فقال : ﴿ فإن الله يعلمه ﴾ أى يعلم المراد إن كان إخلاصاً أورياً .

﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم فأحبطوا بالرياء أعمالهم وضيعوا بعدم الإخلاص لله ثوابهم ، ليس لهم من الله ولي ولا نصير . قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ أى إن أديتم الصدقات علانية فنعمة الشيء هي وهذا أسلوب مدح . ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ . أى أن إخفاءها والإسرار بها خير وأفضل فالله جل شأنه يحب الإخلاص في كل شيء أمر به عباده . والسرية أدعى إلى الإخلاص . وفعل الطاعات ، ومنها الصدقات مكفرة للسيئات ، مقربة إلى الرب ، منها عن الإثم ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ عليم بدقائق الأمور وحقائقها ، عليم بالنيات وما تخفى الصدور . وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية . يقول الإمام ابن كثير : قال رسول الله ﷺ : (الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة) . وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول

(٣) نيل الأوطار للشوكاني ج ٨ ص ٢٠٢ ط عيسى البابي الحلبي .

(١) سورة مريم آية : ٩٦

(٢) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٧

الله ﷺ : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : (لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل في خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد . قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار . قال نعم الماء . قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء . قال نعم الريح قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح . قال : نعم ، ابن آدم يتصدق يمينه فيخفيها من شماله) .

عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أي الصدقة أفضل . قال : (سر إلى فقير أو جهد من مقل) وفي الحديث المروى : (صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل) .

وقال ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي في قوله تعالى : ﴿ إِن تَدُوا الصَّدَقَاتِ فَنَعِمَ هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قال أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما أفاعمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ (ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر) قال : خلفت لهم نصف مالي . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه عن نفسه حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له : (ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر) فقال : عدة الله ورسوله . فبكى عمر رضي الله عنه وقال بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا . روى ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا^(١) .

الله يهدي من يشاء

* لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ط الشعب .

تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
 الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾

المفردات : الهدى ضربان : هدى التوفيق إلى طريق الخير والسعادة وهو على الله تعالى ، وهدى الدلالة والإرشاد إلى الخير وهو على النبي ﷺ . ابتغاء وجه الله : طلب مرضاته . أحصروا : منعوا وحبسوا في طاعته لغزو أو تعلم علم . ضربا في الأرض : أى سيروا فيها للكسب والتجارة . التعفف : إظهار العفة وهى ترك الطلب ومنع النفس مما تريد . السيميا : العلامة التى يعرف بها الشيء إخفا : أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه .

بعد أن أرشد في الآية السابقة إلى إيتاء الصدقات للفقراء عامة مسلمين وغيرهم ، بين هنا أنه لا ينبغي التخرج من إعطاء الفقير غير المسلم الصدقة لكفره ، لأن الصدقة لسد خلته ، ولا دخل لها بإيمانه ، إذ من شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ، وأن يسبق سائر الناس بالفضل والجلود . أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية وأخرج ابن جرير وغيره أن ناسا من الأنصار لهم صهر وقراة من المشركين ، كانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يُسلمو فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : قال رسول الله ﷺ : إنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزل الله تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ الآية (١) .

﴿ ليس عليك هداهم ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهدين ، إن أنت إلا بشير ونذير ، وما عليك إلا الإرشاد والحث على الفضائل والنهي عن الرذائل كالمن والأذى وإنفاق الخبيث . ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أى أن أمر الناس في الاهتداء مفوض إلى ربهم بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم ، فهو الذى يوفقه إلى النظر الصحيح الذى يكون من ثمرته العمل الموصل إلى سعادتهم .

﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ﴾ أى وما تنفقوا من خير فنفعه عائد إليكم في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فلا أنه يكف شر الفقراء ويدفع عنكم أذاهم ، فإن الفقراء إذا ضاقت بهم الحال وحزبهم الأمر تألبوا على الأغنياء وسلبوهم ونهبوا أموالهم وأذوهم على قدر ما يستطيعون ، ثم يسرى شرهم إلى غيرهم ، فتختل نظم المجتمع ، ويفقد الأمن في الأمة .

وأما في الآخرة فلأن ثوابه لكم ، ونفعه الديني راجع إليكم لا للفقراء ، فلا تمنعوا الإنفاق على فقراء المشركين .

﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ أى أنكم لا تنفقون لأجل جاه ولا مكانة عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين فقير وفقير ، إذا كان مستحقاً يتقرب بإزالة ضرورته إلى الرزاق الكريم الذى لم يحرم أحداً من رزقه لأجل عقيدته ، وهذا كقوله : ﴿ كلا غمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ .

﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ أى يوف إليكم في الآخرة لا تنقصون منه شيئاً ، فأنتم على استفادتكم من الإنفاق فى رقى أنفسكم ، وثبوتها فى مقامات الإيمان والاحسان ، وإرادة وجه الله وابتغاء مرضاته — لا يضيع عليكم ما تنفقون ، بل توفونه ولا تظلمون منه شيئاً . وفى هذا إرشاد من الله لعباده أن يكملوا أنفسهم ، وابتغوا أن يراهم الله كملة ، يعملون الحسن ، لأنه حسن تتحقق به حكمته ، وتقوم به سنته فى صلاح البشر . ثم بين أحق الناس بالصدقة فقال :

﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله . . لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أى اجعلوا ما تنفقون للذين ذكر الله صفاتهم الخمس التى هى من أجل الأوصاف قدرا :

١ - الإحصار فى سبيل الله ، والمراد به حبس النفس للجهاد أو العمل فى مرضاة الله ، إذ هم لو اشتغلوا بالكسب لتعطلت المصلحة العامة التى أحصروا فيها ، وحبسوا أنفسهم لها ، وتجب نفقتهم فى بيت المال . ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية فى العصر الحديث ، فإن حبس الشخص نفسه فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح كالجهاد وطلب العلم ، وكان يستطيع الكسب فى أوقات فراغه ؛ لم يحل له الأخذ من الصدقة .

٢ - العجز عن الكسب والضرب فى الأرض للتجارة ونحوها بسبب المرض أو الخوف من العدو ، وهذا هو المقصود بقوله : ﴿ لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ﴾ .

٣ - التعفف والمبالغة فى التنزه عن الطمع مما فى أيدي الناس ، فإذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم ظنهم أغنياء . وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ .

٤ - أن لهم سيما خاصة تترك معرفتها إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ، إذ صاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر وتعفف ، ولا يختص ذلك بخشوع وتواضع ، ولا برثائه فى الثياب ، فرب سائل يأتيك خاشع الطرف والصوت رث الثياب ، تعرف من سيماه أنه غنى وهو يسأل الناس تكثراً ، وكم رجل يقابلك بطلاقة وجه ، وحسن بزة ، فتحكم عليه فى لحن قوله ، وأمارات وجهه أنه فقير عزيز النفس . وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ .

٥ - ألا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين وأهل الكؤودية . وقد يكون المعنى - أنهم لا يسألون أحدا شيئا لا سؤال إلحاف ولا سؤال رفق واستعطاف .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ليس المسكين الذى يطوف على الناس ، ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرّة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفْظَن له فيتصدق عليه ، ويقوم فيسأل الناس شيئا) (١) .

والسؤال محرم لغير ضرورة . يروى أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » والمرة بكسر الميم ، والسوى هو السليم الأعضاء ، والمراد به القادر على الكسب . وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : يارسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغذيه أو يعيشه » . وروى أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من سأل الناس : أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ، فليستقل منه أو ليستكثر) .

وروى أحمد والبخارى ، ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لأن يغدو أحدكم فيحطّط على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا : أعطاه أو منعه) (٢) .

فمن يُعلم أنه يسأل لنفسه تكثرا كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل - لا يعطى شيئا ، فقد رأى عمر رضى الله عنه سائلا يحمل جرابا فأمر أن ينظر فيه فإذا هو خبز ، فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في أهل الصّفة وهم أربعمائه من فقراء المهاجرين رصدوا أنفسهم لحفظ القرآن الكريم والجهاد في سبيل الله ، ولم يكن لأكثرهم مأوى ، لذلك كانوا يقيمون في صُفّة المسجد (موضع منه مُظَلّ) وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها ، فهم محصورون في سبيل الله بهذه الهجرة ومحصورون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن ، وقد كان حفظه حينئذ من أفضل العبادات على الإطلاق ، لأنهم ما كانوا يحفظونه إلا للفهم والاهتداء والعمل به ، وحفظ الدين بحفظه ، وكانوا يحفظون ببيان النبى ﷺ بسنته القولية وسنته العملية . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وقف يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : (أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفقاى) (٣) .

ولا يحل لأهل التكايا ومشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس ، لأنهم لم ينقطعوا لتعلم علم ولا غزوفى سبيل الله ، بل قصارى أمر الأولين أن يأكلوا الصدقات والأوقاف ليعبدوا الله في هذه التكايا فهى لهم كالأديار

(١) صحيح مسلم بشرح النووي - ج ١ - ص ٧٧ ، ٧٨ ط الشعب .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى - ج ٢ - ص ٣٩٩ ط دار الفكر .

لنصارى وهم فيها كالرهبان وإن كان بعضهم قد يتزوج. وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلدا بعد آخر ، ويكلفون من يستضيفونه الذبائح شيئا كثيراً من الطعام ، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا ، بل قد يسلبون وينهبون باسم الدين ، وفي معرض الكرامات ، وهؤلاء يشبهون أنفسهم بأهل الصفة، ويزعمون أن لأكلهم أموال الناس بالباطل أصلا في الكتاب والسنة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فلا يخفى عليه حسن النية والاخلاص له في العمل ، ولا تحرى النفع به وابتأؤه أحق الناس به ، فهو يجازى عليه بحسب هذا ولا يخفى ما في هذا الترغيب في الانفاق ، ولا سيما على مثل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ..

قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . يقول ابن كثير : هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار ، وجميع الأحوال من سر وجهر حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضا كما ثبت في الصحيحين. أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضا عام الفتح ، وفي رواية حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك » روى الامام أحمد بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقه يحسبها كانت له صدقة) . قوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أى ثواب ما أنفقوا عند الله في الآخرة ولا خوف عليهم مما سأتى ولا هم يحزنون على ما مضى فأى أمن وأمان أعظم من هذا لا خوف ولا حزن (١) .

الربا وأكلوه

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٨١ ، ٤٨٢ ط الشعب .

أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

المفردات: يأكلون : أى يأخذون ويتصرفون فيه بسائر أنواع التصرفات ، والربا : لغة الزيادة يقال ربا الشيء يربو إذا زاد ، ومنه الرباية ، لما علا من الأرض فزاد على ما حوله. والخبط : الضرب على غير اتساق ، يقال ناقة خبوط إذا ضربت الأرض بقوائمها ، ويقال للرجل يتصرف في الأمور على غير هدى : هو يخبط خبط عشواء . والعشواء : الناقة الضعيفة البصر والمس : الجنون ، يقال مس الرجل فهو ممسوس إذا جن ، والموعظة : العظة والزجر ، والمحق : نقص الشيء حالا بعد حال كمحاق القمر . ويرى : يزيد ويضاعف ، لا يجب : أى لا يرتضى ، والكفار : المقيم على الكفر المتعادل له . والأثيم : المنهمك في ارتكاب الآثام ، اتقوا الله : أى قوا أنفسكم عقابه ، وذروا : أى أتركوا . فأذنوا : أى فاعلموا ، بحرب من الله : أى بغضب منه ، وحرب من رسوله بمعاملتكم معاملة البغاة وقتالكم بالفعل في عصره ، واعتباركم أعداء له في كل عصر ، لا تظلمون : أى لا تفعلون الظلم بغرمائكم بأخذ الزيادة ، ولا تظلمون بنقص شيء من رأس المال ، العسر : الإعسار ، ويكون بفقر المال أو كساد المتاع . والنظرة : الانتظار ، والميسرة : اليسار والسعة .

كان الكلام قبل هذا في آيات الصدقة والندور ، والمتصدق يعطى المال من غير عوض ابتغاء وجه الله — وهنا ذكر الكلام على الربا لأن المرابى يأخذ المال بلا عوض يقابله ، وقد أفاض القرآن الكريم في ترغيب المسلمين في الصدقات حتى يسد الخلة ويغنى الناس عن اللجوء إلى سبل الحرام ، حتى لقد بلغ أن القرآن جمع بين الإنفاق والندور في آية بلغت من العظمة إلى حد أنها اقترنت بعلم الله قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ (١) فإن لم يكن هناك صدقات أو ندور وإن لم تسمح نفس ابن آدم بالصدقة ابتغاء مرضاة الله فليعط المال قرضاً ، جاء ذلك في آية الدين التي ذكرت بعد آيات الربا ، فإن لم يثق فيمن يقرضه فليطلب الرهن من المقترض للاستيثاق من أداء الدين. قال تعالى : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ﴾ (٢) وهكذا سد الإسلام كل باب يؤدي إلى الربا ، فالصدقات والوفاء بالندور والقرض الحسن والرهن كل هذه تقف سداً أشد من سد يأجوج ومأجوج ، لتسد كل ثغرة تؤدي إلى هذا البلاء الجسيم والنار التي ترعى في المجتمع وتسرى سريان السم الزعاف في الاحشاء والسعير في الهشيم ؛ حتى لقد قال تعالى في شأن هذا الربا ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴿ فماذا قال الفقهاء عن الربا ؟

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٠ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

الربا في اللغة : الزيادة ؛ والمقصود به هنا : الزيادة على رأس المال ، قلت أو كثرت يقول الله سبحانه : ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ .

حكمه : وهو محرم في جميع الأديان السماوية ، ومحظور في اليهودية والمسيحية والإسلام ، جاء في العهد القديم : (إذا قرضت مالا لأحد من أبناء شعبي ، فلا تقف منه موقف الدائن . لا تطلب منه ربا لمالك) . آية ٢٥ فصل ٢٢ من سفر الخروج وجاء فيه أيضا : (إذا افتقر أخوك فاحمله . . لا تطلب منه ربحا ولا منفعة) . آية ٣٥ فصل ٢٥ من سفر اللاويين . إلا أن اليهود لا يرون مانعا من أخذ الربا من غير اليهودي . وقد رد عليهم القرآن ، ففي سورة النساء : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ ، وفي كتاب العهد الجديد : (إذا أقرضتم لمن تنتظرون منه المكافأة ، فأى فضل يعرف لكم ؟ ولكن افعلوا الخيرات ، وأقرضوا غير منتظرين عائدتها وإذا يكون ثوابكم جزيلا) . واتفقت كلمة رجال الكنيسة على تحريم الربا تحريما قاطعا ، استنادا إلى هذه النصوص . قال سكويار : إن من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحدا خارجا عن الدين .

وقال القسيس بوني : « إن المرائين يفقدون شرفهم في الحياة الدنيا ، وليسوا أهلا للتكفين ، بعد موتهم » . والقرآن الكريم تحدث عن الربا في عدة مواضع مرتبة ترتيبا زمنيا ، ففي العهد المكي نزل قول الله سبحانه : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (١) . وفي العهد المدني نزل تحريم الربا صراحة في قول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (٢) وآخر ما ختم به التشريع قول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ (٣) .

وفي هذه الآية رد قاطع على من يقول : إن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافا مضاعفة ، لأن الله لم يبح إلا رد رؤوس الأموال دون الزيادة عليها . وهذا آخر ما نزل في هذا الأمر ، وهو من كبائر الإثم ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات) ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات (٤) ، وقد لعن الله كل من اشترك في عقد الربا ، فلعن الدائن الذي يأخذه ، والمستدين الذي يعطيه ، والكاتب الذي يكتبه والشاهدين عليه ، روى البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه) (٥) روى الدارقطني عن عبد الله بن حنظلة أن النبي ﷺ

(٣) الجامع الصغير للسيوطي جـ ١ ص ٣٢ ط دار الفكر .

(٤) جامع الأحاديث جـ ٥ ص ٢٨٧ .

(١) سورة الروم آية : ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٢٠ .

قال : (الدرهم ربا أشد عند الله تعالى من ست وثلاثين زنية في الخطيئة)^(١) . . وقال ﷺ : (الربا تسعة وتسعون بابا أدناها كأن يأتي الرجل بأمه)^(٢) .

الحكمة من تحريم الربا :

الربا محرم في جميع الأديان السماوية ، والسبب في تحريمه ما فيه من ضرر عظيم :

- ١ - أنه يسبب العداوة بين الأفراد ، ويقضى على روح التعاون بينهم . والأديان كلها ، ولا سيما الإسلام ، تدعو إلى التعاون والإيثار وتبغض الأثرة والأنانية واستغلال جهد الآخرين .
- ٢ - وأنه يؤدي إلى خلق طبقة مترفة لا تعمل شيئا ، كما يؤدي إلى تضخم الأموال في أيديها دون جهد مبذول ، فتكون كالنباتات الطفيلية تنمو على حساب غيرها . والإسلام يمجّد العمل ويكرم العاملين ويجعله أفضل وسيلة من وسائل الكسب ، لأنه يؤدي إلى المهارة ، ويرفع الروح المعنوية في الفرد .
- ٣ - وهو وسيلة الاستعمار ، ولذلك قيل : الاستعمار يسير وراء تاجر أو قسيس . ونحن قد عرفنا الربا وآثاره في استعمار بلادنا .
- ٤ - الإسلام بعد هذا يدعو إلى أن يقرض الإنسان أخاه قرضا حسنا إذا احتاج إلى المال ويشب عليه أعظم مثوبة .

﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ .

والربا قسمان (١) ربا النسئة (٢) وربا الفضل .

ربا النسئة : وربا النسئة ، هو الزيادة المشروطة التي يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل وهذا النوع محرم بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة .

ربا الفضل : وربا الفضل ، وهو بيع النقود بالنقود أو الطعام بالطعام مع الزيادة وهو محرم بالسنة والإجماع لأنه ذريعة إلى ربا النسئة . وأطلق عليه اسم الربا تجوزا . كما يطلق اسم المسبب على السبب . روى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : (لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين ، فإن أخاف عليكم الرماء) أى : الربا . نهى عن ربا الفضل لما يخشاه عليهم من ربا النسئة وقد نص الحديث على تحريم الربا في ستة أعيان :

الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح . فعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استراد فقد أربى ، الأخذ والمعطى سواء) . رواه أحمد والبخارى .

علة التحريم : هذه الأعيان الستة التي خصها الحديث بالذكر تنظم الأشياء الأساسية التي يحتاج

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربي .

الناس إليها والتي لا غنى لهم عنها ؛ فالذهب والفضة هما العنصران الأساسيان للنقود تنضبط بهما المعاملة والمبادلة فهما معيار الأثمان الذي يرجع إليه في تقويم السلع . وأما بقية الأعيان الأربعة فهي عناصر الأغذية وأصول القوت الذي به قوام الحياة .

فإذا جرى الربا في هذه الأشياء كان ضارا بالناس ومفضيا إلى الفساد في المعاملة ، فمنع الشارع منه رحمة بالناس ورعاية لمصالحهم ويظهر من هذا أن علة التحريم بالنسبة للذهب والفضة كونها ثمنا ، وأن علة التحريم بالنسبة لبقية الأجناس كونها طعاما ، فإذا وجدت هذه العلة في نقد آخر غير الذهب والفضة أخذ حكمه ، فلا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد . وكذلك إذا وجدت هذه العلة في طعام آخر غير القمح والشعير والتمر والملح ، فإنه لا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد .

روى مسلم عن معمر بن عبد الله عن النبي ﷺ : أنه نهى عن بيع الطعام إلا مثلا بمثل ، فكل ما يقوم مقام هذه الأجناس الستة يقاس عليها ويأخذ حكمها ، فإذا اتفق البدلان في الجنس والعلة حرم التفاضل وحرّم النساء أى التأجيل ، فإذا بيع ذهب بذهب أو قمح بقمح فإنه يشترط لصحة هذا التبادل شرطان :

١ - التساوى في الكمية بقطع النظر عن الجودة والرداءة للحديث المذكور ، ولما رواه مسلم (أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ بشيء من التمر ، فقال له النبي ﷺ : ما هذا من تمرنا ؟ فقال الرجل : يا رسول الله بعنا تمرنا صاعيه بصاع : فقال ﷺ : ذلك الربا ، وردوه ثم يبيعوا تمرنا ثم اشتروا لنا من هذا) . وروى أبو داود عن فضالة قال : (أتى النبي ﷺ بقلادة فيها ذهب وخرز اشتراها رجل بتسعة دنائير أو سبعة ؛ فقال النبي ﷺ : لا ، حتى تميز بينهما قال : فرده حتى ميز بينهما) . ولمسلم : (أمر بالذهب الذي في القلادة فترع وحده ، ثم قال : الذهب بالذهب وزنا بوزن) .

٢ - عدم تأجيل أحد البدلين ، بل لابد من التبادل الفوري ، لقوله ﷺ : (إذا كان يدا بيد) ، وفي هذا يقول الرسول ﷺ :

(لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ، ولا تُشفوا : أى تفضلوا . بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا غائبا منها بناجز) . رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد .

وإذا اختلف البدلان في الجنس واتحدا في العلة ، حل التفاضل وحرّم النساء . فإذا بيع ذهب بفضة أو قمح بشعير فهنا يشترط شرط واحد وهو الفورية . ولا يشترط التساوى في الكم بل يجوز التفاضل .

روى أبو داود أن النبي ﷺ قال : (لا بأس ببيع البر بالشعير ، والشعير أكثرهما ، يدا بيد) ، وفي حديث عبادة عند أحمد ومسلم : (فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد) وإذا اختلف البدلان في الجنس والعلة فإنه لا يشترط شيء فيحل التفاضل والنساء . فإذا بيع الطعام بالفضة حل التفاضل والتأجيل ، وكذا إذا بيع ثوب بثوبين أو إناء بإنائين . والخلاصة أن كل ما سوى الذهب والفضة

والمأكول والمشروب لا يحرم فيه الربا ، فيجوز بيع بعضه ببعض متفاضلاً ونسيئة ، ويجوز فيه التفرق قبل التقابض ، فيجوز بيع شاة بشاتين نسيئة ، ونقداً ، وكذلك شاة بشاة لحديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أمره أن يأخذ في قلائص الصدقة البعير بالبعيرين إلى الصدقة ، أخرجه أحمد وأبو دواد والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . ورواه البيهقي ، وقوى الحافظ ابن حجر إسناده . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله ﷺ اشترى عبداً بعبدين أسودين ، واشترى جارية بسبعة أرؤس وإلى هذا ذهب الشافعي .

مسائل تتعلق بالربا

قال جمهور الأئمة : لا يجوز بيع حيوان يؤكل بلحم من جنسه ، فلا يجوز بيع بقرة مذبوحة ببقرة حية يقصد منها الأكل ، لما رواه سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الحيوان باللحم .

لا يجوز بيع الرطب . بما كان يابساً . روى مالك وأبو دواد عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ سئل عن بيع الرطب بالتمر ؟ فقال : أينقص الرطب إذا ييس ؟ قالوا نعم . فنهى عن ذلك . ونهى رسول الله ﷺ عن بيع العينة ، لأنه ربا وإن كان في صورة بيع وشراء . ذلك أن الإنسان المحتاج إلى النقود يشتري سلعة بثمن معين إلى أجل ، ثم يبيعها ممن اشتراها منه بثمن حال أقل ، فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذي أخذه عاجلاً . وهذا البيع حرام ويقع باطلاً .

١ - روى ابن عمر أن النبي ﷺ قال : (إذا ضمن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء ، فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم) .

٢ - وقالت العالية بنت أيفع بن شرحبيل (دخلت أنا وأم ولد زيد بن أرقم وامراته على عائشة رضي الله عنها ، فقالت أم ولد زيد بن أرقم : إني بعت غلاماً من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم نسيئة ، ثم اشتريته بستمائة درهم نقداً ، فقالت بثس ما اشتريت ، أبلغني زيد بن أرقم : أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب » أخرجه مالك والدارقطني^(١) .

الآيات: وبعد أن بين لنا الفقهاء رحمهم الله تعالى المسائل التي تتعلق بالربا نأخذ بعد ذلك في تفسير الآيات ، حتى يتضح الأمر لمن أراد أن يذكر ، وليكون في ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال الشيخ المراغي الربا قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فالأول : يكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود كسنة أو شهر مع اشتراط الزيادة في نظير امتداد الأجل ، وهو المستعمل الآن في المصارف المالية وهو الذي نص القرآن الكريم على تحريمه وكان متعارفاً في الجاهلية وقت التنزيل قال ابن جرير : إن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول الذي عليه المال : أخر عني دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه : اهـ .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربي .

والتعامل بهذا النوع من الكبائر وقد ورد في الحديث « لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده » .

والثاني يكون في بيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر كأن يبيعه إردبا من القمح الهندي بثلاث عشرة كيله من القمح البلدي أو أقة عنب مصرى بأقة ورابع من عنب أزميز أو قنطارا من فحم انجلترا بقنطار ونصف من فحم إيطاليا ، وهكذا الحكم في جميع المكيلات والموزونات والنقدين (الذهب والفضة) لما جاء في الخبر من قوله ﷺ : (لا تبيعوا الذهب بالذهب والورق بالورق) (الفضة) والبر بالبر والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عينا بعين يدأ بيد)^(١) . والتعامل به محرم أيضاً .

ويضيف الشيخ المراغى قائلاً : وقد زعم كثير من المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب بلاد المدينة والحضارة ونهلوا من مناهل العلم هناك ، إن تحريم الربا في الإسلام هو العقبة الكثود في مجارة الأمم الإسلامية للبلاد الغربية في الثروة التي هي مناط العزة والقوة في العصر الحديث ويحتجون بأن المسلمين مأمونوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدي الأجانب إلا بتحريم الربا فإنهم لاحتياجههم إلى الأموال يأخذونها من الأجانب بالربا الفاحش ، ومن كان منهم غنيا لا يعطى ماله بالربا فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لا ينمو وهم يريدون بذلك أن الدين قد وقف عقبة كأداء في أهم مسألة عمرانية اجتماعية ، وهذه حجة أوهمى من بيت العنكبوت وأوهام يزينها لهم الشيطان لم يحصوها حق التحصيل ، فإن المسلمين في هذا العصر لا يحكمون الدين في شيء من أعمالهم ومكاسبهم إذ لو حكموه لما استعانوا بالربا ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم ، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين ؟ فالأمر جميعاً قد سبقنا إلى إتقان ذلك فلماذا لا نتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم وديننا يدعونا إلى السبق في إتقان كل شيء ؟ .

وفي الحق أن المسلمين قد نبذوا الدين وراءهم ظهرياً ، فلم يبق منه إلا تقاليد وعادات ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، فالدين لم يكن عائقاً لهم عن الرقى بل هو خير الأديان في الدعوة إلى العمل والحث على الكسب كما قال تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وقال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾^(٢) .

فالأمة الإسلامية ما ارتفعت إلا بالدين وما سقطت بعد ما ارتفعت إلا بترك الدين مع الجهل بالسبب الذي أفضى بها إلى ذلك ، إلى أن صارت تجعل علة الرقى سبباً في الانحطاط فلو اتبعت حكوماتنا وأفرادنا أوامر الدين وتركت التعامل بالربا مع الأجانب ، لما ضاعت ثروتنا ولا ذهب ملكنا ، وكان الدين وحده هو العاصم لنا فالربا : مسألة اجتماعية كبيرة اتفقت في حكمها الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والإسلام ، لكن اختلف فيها أهل الأديان فاليهود كانوا يرابون غيرهم والنصارى يرابى بعضهم بعضاً ويرابون سائر الناس ، والمسلمون حفظوا أنفسهم من هذه الرذيلة ردحا طويلاً من الدهر ، ثم قلدوا

(٣) سورة الجمعة آية : ٩ .

(١) الجامع الصغير للسوطى ج ١ ص ٦٦٩ .

(٢) سورة الملك آية : ١٥ .

غيرهم فيها ثم انتشرت بينهم في العصر الحديث في أكثر الأقطار ، والسرف في هذا أنهم قلدوا حكامهم في هذا السبيل بل كثيراً ما ألزم الحكام الرعية بالتعامل بالربا أداء للضرائب التي يفرضونها عليهم . ويلخص الشيخ المراغى أسباب تحريم الربا فيقول : ويمكن أن نلخص الأسباب التي لأجلها حرم الدين الربا فيما يلي :

١ - إنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة ، كأنواع الحرف والصناعات لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من إغناء ماله ، خف عليه الكسب وسهلت لديه أسباب العيش فيألف الكسل ويمقت العمل ويتجه همه إلى أخذ أموال الناس بالباطل وتزداد شراسته في الاستيلاء على كل ما يستطيع أن يبتزّه من أموالهم فلا يرأف بفقر ولا يشفق على بائس ولا يرحم مسكيناً ، وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمات كقحط في البلاد أو حروب تشتد فيها الحاجة إلى الأقوات فيضطر الفقراء إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستنزفون دماءهم ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم .

٢ - إنه يؤدي إلى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات إذ هو ينزع عاطفة التراحم من القلوب ويضيع المروءة ويذهب المعروف بين الناس ويحل القسوة محل الرحمة ، حتى إن الفقير ليموت جوعاً ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه ومن جراء هذا منيت البلاد ذات الحضارة التي تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية ، فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على أصحاب الأموال وأضربوا عن العمل الفينة بعد الفينة والمرة بعد المرة .

ومنذ فشا الربا في البلاد المصرية ضعفت فيها عاطفة التعاون والتراحم وأصبح المرء لا يثق بأقرب الناس إليه ولا يقرضه إلا بمسند وشهود بعد أن كان المقرض يستوثق من المقرض ولو أجنبياً عنه بالألا يحدث أحداً بأنه اقترض منه ، وما كان المقرض في حاجة في وصول حقه إليه إلى مطالبة ، بلا محاكم ومقاضاة .

٣ - إن الله جعل طريق التعامل بين الناس في معاشهم أن يستفيد كل منهم من الآخر في نظير عوض لكن في الربا أخذ مال بلا عوض وهذا نوع من الظلم لأن للمال حقاً وحرمة فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه قهراً بطريق غير مشروع قال ﷺ : (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه)^(١) .

ولا ينبغي اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً من بقاء رأس المال في يد المدين زمناً لو كان فيه في يد الدائن لاستفاد منه بطريق وسائل الكسب كتجارة وزراعة ونحوها ، لأن هذا ربما لا يحصل وإن حصل فرمما لا تحقق الاستفادة ؛ أما أخذ الزائد في الربا فمتيقن ولا يجوز مقابلة المحتمل الحصول بالمؤكد المتيقن .

٤ - أن عاقبة الخراب والدمار فكثيراً ما رأينا ناساً ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم بأكلهم الربا وفي حديث ابن مسعود عن أحمد وابن ماجه وابن جرير : (إن الربا وإن كثر فعاقبته تصير إلى قتل) .

والسرف في هذا أن المقرضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ، ويزين لهم الشيطان إنفاقه في وجوه من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها وغيرهم بالمزيد من الاستدانة ولا يزال ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم فإذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ولا يزالون يملطون

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٧٣ ط دار الفكر .

ويؤجلون ، والدين يزيد يوماً بعد يوم حتى يستولى الدائنون قسراً على كل ما يملكون فيصبحون فقراء معدمين ، وصدق الله : ﴿ يحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ هذا تصوير لحال أكلة الربا عندما يقومون من قبورهم بعد الموت ، إنهم يقومون من القبور يوم القيامة كمن به صرع من الشيطان. وما من شك فى أن أكلة الربا من أولياء الشيطان فقد ملأوا بطونهم من الوباء والبلاء ، ولم يتحروا الحلال من الحرام ، ويرحم الله نساء المؤمنين كانت الواحدة منهن توصى زوجها كل صباح فتقول له يا فلان : اتق الله فينا ولا تأكل حراماً ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا لكننا لا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . . إن تخبط الشيطان لهم إنما هى الحيرة فى أسوأ أحوالها ، إنهم كمن به جنون تراه دائماً شارداً ، غير مستقر فزعاً غير مطمئن ، وقد وردت للمفسرين أقوال يجمل بنا أن نذكرها مفصلة . . عن ابن عباس رضى الله عنه قال : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنى . . وعنه أيضاً قال : « يقال يوم القيامة لأكل الربا خذ سلاحك للحرب » . وقرأ : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ وذلك حين يقوم من قبره .

وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء كما هو مذكور فى سورة سبحان : (أنه عليه السلام مر ليلتئذ يقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل : هؤلاء أكلة الربا) . رواه البيهقى مطولاً^(١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ . قال : هؤلاء أكلة الربا)^(٢) رواه أحمد .

وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة فيفغر له فاه ، فيلقمه حجراً . . وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا^(٣) يقول ابن كثير : وقوله : ﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه ، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : « إنما الربا مثل البيع » وإنما قالوا : « إنما البيع مثل الربا » أى هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أى هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم أى على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون^(٤) .

وليس الجنون والحيرة والاضطراب الذى يصيب أكلة الربا ليس ذلك كله مقصوراً على قيامهم من

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٨٣ ط دار الشعب .

(٢) المصدر السابق .

قبورهم بل إن حالهم في الدنيا كذلك فهم في فزع دائم يقومون من نومهم مشدودين إلى جمع المال بأى وسيلة محرمة ولو كان لأحدهم وإديان من ذهب لا بتغى ثالثاً ولا يملأ جوفهم إلا تراب القبر . فهم دائماً في حال صرع وجنون كأن بهم مساً من الشيطان ، فترى الواحد منهم كالذى استهواه الشياطين في الأرض حيران بين موائد القمار والتعامل بالربا ، وقد يكون قولهم إنما البيع مثل الربا إمعاناً منهم وإصراراً على حل الربا بل هو في باب الحلال أوقع من البيع حيث جعلوا البيع مشبهاً والربا مشبهاً به وشتان ثم شتان بين المشبه والمشبّه به . . ومن ثم وقد رد عليهم العلى الحكيم قائلاً: ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ . إذ أن البيع معاملة بعيدة عن الاستغلال والترهل وامتصاص الدماء ، أما الربا ففيه كل تلك العلل وشتان بين أن يشتري الإنسان سلعة كالقمح أو اللحم أو الفاكهة ليستفيد بها وبين أن يقترض شيئاً من المال من أحد المرابين فيستغل عذره ويفرض عليه الزيادة على الشيء الذى أخذه من المال فيكون مثله كالحشرات التى تعيش على دماء الأصحاء حتى تتركهم تحت أطباق الثرى أجساداً هامدة ، ومن هنا فإن الإسلام أغلق باب الربا إذ فتح باب البيع وإغاثة الملهوف ، كذلك باب الصدقات والقرض الحسن والرهن للاستيثاق من أداء الدين ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ . فأى وجه من وجوه الشبه بين البيع والربا وقد أحب الله هذا وحرم ذاك ؟ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله .

أى من بلغته الأحكام بتحريم الربا فانتهى عنه ولم يتعامل به فله ما سلف أى فقد عفا الله عما كان يتعامل به قبل بلوغ الأحكام وتجاوز عنه ربه إذ أنه لا ذنب له قبل مجيء موعظة الله ، وأمره إلى الله ، أى وقد أمر الله فيها بالعفو ، وهذا بالنسبة إلى الذين عاصروا الوحي ، أما الذين جاءوا بعد نزول الأحكام على رسول الله ﷺ فليس لهم عذر بعدما أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام ديناً . وقد جاء النبى بتلك الشريعة بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولذا قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ أى بعد نزول الحكم ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ أما من عاد بعد بيان الحكم ، فينتقم الله منه قال تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . لأنهم عادوا إلى اقتراف المخالفات بعدما وضحت الأحكام وانجلت الظلمات وبرح الخفاء . ومن هنا فقد حرم الإسلام صوراً من المعاملات ، كالعينة وصورتها أن الإنسان المحتاج إلى النقود يشتري سلعة بثمن معين إلى أجل ثم يبيعها عن اشتراها منه بثمن حال أقل فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذى أخذه عاجلاً وهذا البيع حرام ويقع باطلاً . . كذلك حرم الإسلام بيع المزائنة ، وهو بيع الرطب بالجاف كذلك حرم المحاقلة وهو بيع القمح فى سنابله فى الحقل بالقمح على الأرض ، فعلى المسلم أن يتحرى ويعلم أن الحرام بين والحلال بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام . فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس فاستفت قلبك وإن أفنك الناس وأفنوك ، واعلم بأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وأن الظلم

لا يدوم ، وإذا دام دمر ، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ فالتعبير بالمحق فيه من الدلالة ما فيه ، فالله يسحق الربا من أصوله فيذر الديار بلاقع - ومهما كثر مال المرابي فهو قليل لا بركة فيه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ قال شعيب لقومه «بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين» فاللهم ارزقنا الحلال وبارك لنا فيه وواعد بيننا وبين الحرام كما باعدت بين المشرق والمغرب إن شجرة الربا ثمرتها مرة كالحنظل لأنها خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، أما ثمرة الحلال فإنها مباركة قال تعالى: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أى يزيد ما وينميها وبارك فيها ، لأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤق أكلها كل حين بإذن ربها ، والمرء فى ظل صدقته يوم القيامة حتى يقضى بين العباد ومن أراد الله فليلتمس في الفقراء عبدى أنفق أنفق عليك .

والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثال

وجزاء رب المحسنين يجل عن عدّ وعن وزن وعن مكيال

قال رسول الله ﷺ (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً ، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلهو حتى تكون مثل الجبل) (١) .

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هاتان صيغتان من صيغ المبالغة (كفار أثيم) أى كثير الكفر والجحود لنعمة الله لا يعرف الشكر إلى قلبه سبيلاً ، جيفة بالليل ، خمار بالنهار ، جعظرياً جواظاً : أى قاسى القلب سىء الخلق ، فظ غليظ مهموم بأمر الدنيا ، غافل عن شئون الآخرة أثيم كثير الذنوب إنهم أكلة الحرام الذين رضعوا ألبان الاثم وشربوا من مائها الأسن . وعلى الجانب المقابل تشرق علينا أنوار الإيمان والعمل الصالح فيقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هؤلاء آمنوا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فأحلوا ما أحل الله وحرّموا ما حرّم وجعلوا بينهم وبين النواهي حجاباً مستوراً وقتعوا بما قسم الله مصداقاً لقول الصادق المعصوم : (اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب لأخيك كما تحب لنفسك تكن مسلماً ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) (٢) وعلى رأس تلك الأعمال الصالحة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، عبادة قلبية وعبادة مالية فمن أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا أرادت أن تتصدق مست درهم الصدقة بالمسك فيقال لها فى ذلك فتقول لأننى أضعه فى يد الله قبل أن أضعه فى يد المسكين أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (٣) . وما جزاء هؤلاء ؟ . لهم أجرهم عند ربهم . . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العالمين . . ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا هم يحزنون على ما مضى .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفينا ويفنيها

(٣) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

(١) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٦ ص ١٣٤

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٤ دار الفكر

واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين بتقواه فإنهم أسرع الناس امتثالاً لأمر الله وذروا ما بقى من الربا ، أى أتركوا ما كان لكم عند الناس من زيادة على رأس المال فإن فعلتم ذلك فهذا دليل على إيمانكم فليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل وابن حبان والسدى أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذهم منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدى الربا فى الإسلام بكسب الإسلام فكتب فى ذلك عتاب ابن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ﴿ فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم ، وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ، لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار . .

قوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ قال ابن عباس فاذنوا بحرب أى استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وعنه قال : يقال يوم القيامة لأكل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ ﴿ فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ وقال على بن أبى طلحة عن أبى عباس ﴿ فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ فمن كان مقيماً على الربا لا يتزع عنه ، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيهه فإن نزع وإلا ضرب عنقه .

قوله تعالى : ﴿ فإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ .

التوبة ندم على ما فات وعزيمة على عدم العود وأداء الحقوق لأصحابها ، وليست التوبة كلمات تلوكها الألسنة وتتحرك بها الشفاه ، إنما التوبة كالدواء والذنوب كالداء ولكل داء دواء يستطب به ، وتوبة المرابى أن يأخذ رأس ماله دون زيادة حتى لا يظلم غيره وله الحق أن يأخذ رأس المال كاملاً حتى لا يظلم نفسه ﴿ لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ . إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . .

قوله تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ أمر من الله تعالى لأصحاب اليسار أن ينظروا المعسر الذى ضاقت يده إلى وقت الميسرة ، وذلك لأن الراحين يرحمهم الرحمن ، وقد كان من عادة الجاهليين إذا حل دين أحدهم أن يقول للمدين إما أن تقضى وإما أن تربى فجاء الأمر من أرحم الراحمين بالإنظار بل وندبهم إلى أن يتصدقوا بالدين فإن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ، داووا مرضاكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء فما نقص مال من صدقة ، فإن كنتم تعلمون ما عند الله من عظيم الأجر وتفريج الكرب ، وزوال الغم وشفاء المريض لتصدقتم بالمال على ذوى الحاجات . .

﴿ وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ﴾ . ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ . جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر من الزاد فإن السفر طويل وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كثود .

قال ﷺ: (من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه) ^(١) وعن سليمان ابن بريدة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة) ، قال ثم سمعته يقول: (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة) قلت سمعتك يا رسول الله تقول « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » ثم سمعتك تقول: (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة) قال « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة » ^(٢) وعن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه فقال نعم هو في البيت فناداه . فقال يا فلان : اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا . فخرج إليه فقال ما يغيبك عني ؟ فقال إني معسر وليس عندي شيء قال الله إنك معسر ؟ قال نعم فبكى أبو قتادة . ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ من نفس عن غريمه أو محبا عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة ﴾ ^(٣) رواه مسلم في صحيحه .

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لي في الدنيا ؟ قال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها — قالها ثلاث مرات — قال العبد عند آخرها يارب إنك كنت أعطيتني فضل مال وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقي الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر . قال فيقول الله عز وجل : أنا أحق من ييسر ، ادخل الجنة » ^(٤) .

وعن عبد الله بن سهل بن خيف أن سهلاً حدثه أن رسول الله ﷺ قال: « من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غازياً أو غارماً في عسرتة أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » ^(٥) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » ^(٦) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : (من كان له على رجل حق فأخره ، كان له بكل يوم صدقة) ^(٧) .

قوله تعالى ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ روى أن

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

(٧) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩١ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩١ ط الشعب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩١ ط الشعب .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

هذه الآية ، آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة : حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول .

جاءت هذه الآية الكريمة ختاماً لآيات الربا حتى يعلم الناس أن الدنيا مهما أقبلت فهي مدبرة ، وأن العمر مهما طال فلا بد من دخول القبر . فليحذروا عقاب الله في يوم يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً . ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاع ﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿ . فياله من يوم ما أطوله ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله ، ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذريوم التلاق ﴾ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴿ غدا توفي النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون مازرعوا إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فبئس ما صنعوا .

آية المدائنة

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

المفردات : تدايتم : دأين بعضكم بعضاً . إلى أجل مسمى : أى موعد محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم لا بالحصاد وقدم الحاج ، مما فيه جهالة ، بالعدل : أى بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين ، ولا يابى : أى لا يمتنع . كما علمه الله : أى على الطريق التى علمه الله إياها من كتابة الوثائق . وليممل : أى ويلق على الكاتب ما يكتبه والإملال والإملاء بمعنى ، يقال أمل على الكاتب وأمل عليه . ولا يبخس : أى ولا ينقص . سفيهاً : أى ضعيف الرأى لا يحسن التصرف فى المال لضعف عقله . أو ضعيفاً : أى صيباً وشيخاً هرمًا . أو لا يستطيع أن يمل : أى بأن كان جاهلاً أو أبكم أو أخرس ، واستشهدوا شهيدين : أى اطلبوا أن يشهد رجلان . ترضون : أى ترضون دينهم وعدالتهم . أن تفضل أى تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها . ولا تسأموا : أى لا تملوا ولا تضجروا . أقسط : أى أعدل . وأقوم أى وأعون على إقامتها على وجهها ، وأدنى : أى أقرب ألا ترتابوا : أى إلى انتفاء الريب فى جنس الدين وقدره وأجله . تديرونها : أى تتعاطونها بالتعامل يدأ بيد . والجناح : الإثم والذنب ولا يضار أى ولا يفعل الضرر بالمعاملين بالامتناع عن الكتابة أو الشهادة أو بالتحريف أو الزيادة أو النقص . فسوق : أى خروج عن الطاعة . والرهان واحذا رهن بمعنى مرهون ..

لما رغب الله تعالى عباده فى الإنفاق وضرب لذلك الأمثال ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة ﴾ وبين أن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم مثلهم فى ذلك ﴿ كمثل حبة برية أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظل ﴾ بعد ذلك نهى سبحانه وتعالى عن التعامل بالربا نهياً بلغ إلى حد أن قال الله سبحانه ﴿ فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ وذكر العباد باليوم الآخر فقال ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ لما كان ذلك كذلك جاءت آية الدين وهى أطول آية فى كتاب الله ، بين الله فيها أحكاماً تتعلق بالمعاملات المالية ، ذلك لأن الإسلام أمر بالحفاظ على النفس والعقل والمال والعرض (فنعم المال الصالح للعبد الصالح) وللفقهاء كلام فى الدين نذكره مفصلاً :

يقول الشيخ السيد سابق : شرع الله الدين قرينة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى لما فيه من الرفق بالناس والرحمة بهم وتيسير أمورهم وتفريج كربهم . وإذا كان الإسلام ندب إليه وحجب فيه بالنسبة للمقرض فإنه أباحه للمقرض ولم يجعله من باب المسألة المكروهة لأنه يأخذ المال ليتنفع به فى قضاء حوائجه ثم يرد مثله .

روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه) . رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

وعن أنس قال رسول الله ﷺ : (رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بشمانيه عشر فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة) .

وعقد الدين عقد تمليك فلا يتم إلا ممن يجوز له التصرف ، ولا يتحقق إلا بالإيجاب والقبول كعقد البيع والهبة . وينعقد بلفظ القرض والدين والسلف وبكل لفظ يؤدي إلى معناه . فإذا ما تم العقد وحدد الأجل فليس للدائن أن يطالب بدينه قبل حلول الأجل ، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ فهذا أمر بكتابة الدين حفاظاً على المال وعدم ضياعه . ويجوز الدين في الثياب والحيوان فقد ثبت أن الرسول ﷺ استلف بكرة ، كما يجوز قرض ما كان مكيلاً أو موزوناً أو ما كان من عروض التجارة كما يجوز قرض الخبز والخمير لحديث عائشة (قلت يا رسول الله إن الجيران يستقرضون الخبز والخمير ويردون زيادة أو نقصاً فقال : لا بأس إنما ذلك من مرافق الناس لا يراد به الفضل) .

وعن معاذ أنه سئل عن اقتراض الخبز والخمير فقال : سبحانه الله إنما هذا من مكارم الأخلاق ، فخذ الكبير وأعط الصغير وخذ الصغير وأعط الكبير ، خيركم أحسنكم قضاء . . سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك (١) .

ولما شرع الله تعالى القرض ورغب فيه وأثاب عليه فإن حكمة المشروعية الرفق بالناس وتيسير أمورهم وبعيد كل البعد عن روح الإسلام إرهاب الناس والتعسير عليهم ، لذا فإن هناك قاعدة تقول « كل قرض جر نفعا فهو ربا » فلا يجوز لصاحب المال أن يقصد من وراء القرض أى فائدة من المقرض وإنما عليه أن يقصد بعمله هذا وجه الله .

التعجيل بقضاء الدين قبل الموت :

روى الإمام أحمد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن أخيه مات وعليه دين فقال : هو محبوس بدينه فاقض عنه . فقال يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة ليس لها بينة فقال : أعطها فإنها محقة . وروى أن رجلاً قال : (يا رسول الله أرأيت إن جاهدت بنفسى ومالى فقتلت صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أدخل الجنة ؟ قال : نعم فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً قال : إلا إن مت وعليك دين وليس عندك وفاء وأخبرهم بتشديد أنزل فسألوه عنه فقال : الدين . . والذي نفسى بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم عاش ثم قتل في سبيل الله ثم عاش ثم قتل في سبيل الله ما دخل الجنة حتى يقضى دينه) .

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله (قال كان رسول الله ﷺ لا يصلى على رجل مات وعليه دين فأتى بميت فقال : أعليه دين ؟ قالوا : نعم ديناران فقال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصاري : هما على يا رسول الله قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فلما فتح الله على رسوله ﷺ قال أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك ديناً فعلى قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته) .

وحديث البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله) .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٥ ، ١٤٧ ط ١ دار الفكر .

مطل الغنى ظلم :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع) رواه أبو داود وغيره .

استحباب إنظار المعسر : يقول الله سبحانه : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

روى عن أبي قتادة أنه طلب غريباً له فتواري ثم وجده فقال إني معسر فقال . آله ، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » وعن كعب بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله في ظله) (١) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تدايتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ هذا إرشاد من الله لعباده أن يكتبوا الدين خشية النسيان والجنود الذي قد يفضى إلى النزاع ويؤدى إلى العداوة والبغضاء . قال تعالى : ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أى بالقسط والحق ولا يجر فى كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ﴾ أى ليس للكاتب أن يمتنع عن الكتابة إذ سئل ذلك وذلك كما علمه الله فليكتب . . قوله تعالى ﴿ وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أى وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين ولا ينقص منه شيئاً . . قوله جل شأنه : ﴿ فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً ﴾ أى سىء التصرف فى ماله مجوراً عليه للإسراف والتبذير ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أى صغيراً أو مجنوناً ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ وذلك لعجزه عن الكلام كأن يكون أبكم أو ألكن ﴿ فليملل وليه بالعدل ﴾ أى ولى أمره بالعدل ؛ أى بالقسط والحق ، قوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شهادتين من رجالكم ﴾ أى اطلبوا شهادة رجلين حتى تكون شهادتهما بينة لإثبات الدين . قوله تعالى : ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ وإنما قامت شهادة الرجل بامرأتين فى المعاملات لأن رسالة المرأة فى بيتها وتدبير المعيشة والإشراف على التربية ، فليست ذات خبرة فى المعاملات والأسواق فهى كثيراً ما يعتريها النسيان فى مثل هذه الأمور ، لذا بين الله تعالى الحكمة فقال : ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ أى تبتعد عن المطلوب للنسيان أو عدم الخبرة فتذكر إحداهما الأخرى وسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى وسبحان من يسر لعباده ما يلىق بكل منهم فكل ميسر لما خلق له : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ وقال فى حق النساء : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ (٢) .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٩ - ١٥٢ ط ١ دار الفكر

(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الإستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن ، قالت يا رسول الله : ما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين^(١) .

قوله تعالى: ﴿مَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أى أن الشاهدين يكونان معروفين بالعدالة حتى تقع شهادتهما موقع الرضا . قوله جل شأنه: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ نهى من الله تعالى موجه إلى الشهداء ألا يمتنعوا عن أداء الشهادة إذا دعوا إليها وذلك حتى لا تضيق حقوق العباد ، قوله تعالى ﴿وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ هذا توجيه إلهى كريم حفاظاً على الحقوق ؛ فالله تعالى ينهى عن الملل من كتابة الحقوق صغيرة كانت أو كبيرة ، كل إلى أجله ، وقد بين الله تعالى الحكمة من ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ أَمْسَطَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى أعدل ، « وأقوم للشهادة » ، أى أعون على إقامتها على وجهها « وأدنى ألا ترتابوا » أى أقرب الطرق إلى نفى الريبة والشك والظن السيئ وسوء النية .

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أى إذا تم البيع والشراء وقبض البائع الثمن فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ذلك لأنه لا نزاع ولا شحناء .

﴿واشهدوا إذا تباعتم﴾ وذلك أيضاً لإثبات الحق في البيع والشراء ، كما أمر سبحانه وتعالى قبل ذلك بكتابة الدين والإشهاد ، كل هذا حتى لا يكون هناك اختلافات تؤدى إلى العداوة والبغضاء قال سبحانه : ﴿وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ نهى موجه إلى كل كاتب وشهيد فليس للكاتب أن يحرف في كتابته أو يغير حتى لا يكون هناك ضرر بأحد المتعاقدين ، والإسلام يقول في قواعده الأصيلة : « لا ضرر ولا ضرراً » . وعلى الشهيد ألا يكتم أو يغير في شهادته ، إذ أن في الكتمان والتغير ضرراً بأحد المتعاقدين . قال تعالى : ﴿وَأِنْ تَفَعَّلُوا فِإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أى إن وقع الضرر فذلك خروج عن طاعة الله وامثال أوامره واجتناب نواهيه ، وكما أمر الله تعالى بكتابة الدين في أول الآية أمر بالتقوى في ختامها إذ التقوى هى العاصمة والواقية من الوقوع في المخالفات ، إذ هى خوف من الجليل فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ومن أحبه فقد استضاء بنوره ثم قال سبحانه : ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ أى يبين لكم الأحكام التى فيها سعادتكم . ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ﴾ أى يزيل عنكم الغم ويحبب إليكم ما يحسن أحوالكم ويحبب إليكم ما يحسن أحوالكم . ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾^(٢) ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٢

(٢) سورة آل عمران آية : ٦٦

(٣) سورة النور آية : ١٩

(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢

(١) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٧ ص ٨٥

(٢) سورة النساء آية : ٢٦

(٣) سورة البقرة آية : ١٤٠

(٤) سورة البقرة آية : ٢١٦

* وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي
 أُوتِيَ مِنْ أَمْنَتِهِ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لعباده إن كانوا مسافرين وتعذرت الكتابة أى كتابة الحقوق لعدم وجود الكاتب
 أو من يحسن الكتابة ، فليكن هناك رهن يأخذه الدائن للاستيثاق من أداء دينه ، ولا يتم ذلك إلا بقبض
 الشيء المرهون وقد أجاز الإسلام الرهن للاستيثاق من أداء الدين فإن كان هناك أمان وثقة بين الدائن والمدين
 بأن كان المدين معروفاً بحسن الأداء وكرم المعاملة ، فليس هناك ما يدعو إلى الكتابة وعلى المدين أن يؤدى
 الدين في وقته لأنه مؤتمن لدى الدائن ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فلا يجحد ما عليه من الحق بحجة أنه ليس هناك
 كتابة تثبت ذلك وكما قال تعالى : ﴿ ولا يَأْبُ الشُّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ وقال هنا : ﴿ ولا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ لأن
 كتمانها يؤدي إلى ضياع الحقوق ووقوع الظلم فيأكل بعض الناس أموال بعض بالباطل ﴿ ومن يكتمها فإنه
 إثم قلبه ﴾ لأن الكتمان عمل يؤدي إلى الإثم وسوء القصد وفساد النية والعداوة والبغضاء وكل هذه من
 أعمال القلوب وليعلم الجميع أن الله عليم بأعمال العباد وأفعالهم وخلجات نفوسهم وخطرات
 أفئدتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين
 ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم .

المالك هو الله

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ
 فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

لهذه الآية الكريمة تمام ارتباط بما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ ولا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إثم قلبه
 والله بما تعملون عليم ﴾ (١) فإن الذي أحاط علمه بكل شيء له ما في السموات وما في الأرض . قال
 سبحانه : « والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما
 تعملون ﴾ (٢) . إنه المالك المتصرف الذي أحصى كل شيء عددا ، العليم بذات الصدور . الخبير بمكنون
 النفوس وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة
 في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٣

(٢) سورة هود آية : ١٢٣

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ المراد بما في النفس ما استقر فيها وقوى بحيث أصبح ثابتاً ، وذلك مثل الحسد الذي يؤدي إلى البغى ، ومثل الظن السيئ ومثل كتمان الشهادة ومثل البغضاء . كل هذه الأشياء من أعمال النفوس التي إذا استقرت وبلغت حد التمكن فإن الله تعالى يحاسب عليها بسببها ، أما حديث النفس الذي لم يصل حد العزم والتمكن والاستقرار ، فإن الله تعالى ، بفضلله وكرمه قد تجاوز لهذه الأمة عما تحدثها بها أنفسها ما لم يعمل أحدهم أو يتكلم ، وقد عاقب الله أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ذلك أن ما في نفوسهم قد وصل إلى حد العزم والتصميم على الفعل ، فعاجلهم الله بالعقوبة وهم نائمون . فإذا أما أبدى الإنسان وأظهر ما استقر في نفسه من الآثام أو أخفاها فلم يظهرها فإن الله تعالى يحاسبه على ذلك فيغفر لمن يشاء بمحض فضله ويعذب من يشاء بمحض عدله ، وذلك بمقتضى حكمته وعلمه وإرادته . وقد تنزه سبحانه عن الظلم والعبث فهو الحكم العدل المقسط ، وهو العفو الكريم الحليم الرحيم المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم . وكان الله شاكراً علياً ﴾ . وقد جاء ختام الآية ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ فإن من له ما في السموات وما في الأرض من أخص خصائصه ، القدرة ﴿ قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية توجه فريق من الصحابة إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه شدة الحساب على ما في النفس فماذا حدث ؟ لنستمع إلى ما رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال : (لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة . وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطبقها ، فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ؟ فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله في إثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ الآية ، قال فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ إلى آخرها) . وقوله نسخها الله : أي أزال ما أخافهم من الآية الأولى وحوله إلى وجه آخر (٢) .

أركان الإيمان

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ١ ص ٥٠١ ط الشعب

لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ
مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

المفردات :

﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ أى إن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء لا يفضل بعضهم بعضاً ،
سمعنا : أى سماع تدبر وفهم . والتكليف : الإلزام بما فيه كلفة . والوسع : ما تسعه قدرة الإنسان من غير
حرج ولا عسر ، والاكْتِسَاب يفيد الجد فى العمل . والمُواخِذَةُ : المعاقبة لأن من يراد عقابه يؤخذ بالقهر ،
﴿ ما لا طاقة لنا ﴾ أى ما لا قدرة لنا عليه ويشق علينا فعله ، والإِصر : العبء الثقيل يأصر صاحبه ويحبسه
مكانه ، إذ لا يطيق حمله لثقله ، والمراد به التكاليف الشاقة ، مولانا : أى مالكننا ومتولى أمورنا .

ورد فى فضل هاتين الآيتين أحاديث رويت عن رسول الله ﷺ ونسأل الله تعالى أن يلهمنا الرشد ويوفقنا
إلى العمل الصالح ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه :

— عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلته كفتاه) .
— عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ (أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن
نبى قبلى) .

— عن أبى إسحق عن الحارث عن على قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي
وخواتيم سورة البقرة فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش .

— وعن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض
بألفى عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) .

— عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك وقال :
(إنها من كنز الرحمن تحت العرش) وإذا قرأ ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن
سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ استرجع .

— عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه ، فرفع جبريل بصره
إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال فنزل منه ملك فألقى النبى ﷺ فقال له : أبشر
بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا
أوتيته (١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٠٥ - ٥٠٧ ط الشعب .

قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إخبار عن إيمان الرسول ﷺ بكل ما أنزل الله عليه من الوحي المعصوم ، وكذلك المؤمنون كلهم آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، كما آمنوا بالملائكة ، هم سفراء الله إلى خلقه وهم عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون . ما من موضع قدم في السماء إلا وفيه ملك قائم أو راکع أو ساجد لله ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، وكما آمن المؤمنون بالله والملائكة آمنوا كذلك بالكتب المنزلة على الأنبياء تورا وإنجيلاً وزبوراً وقرآناً . كذلك آمنوا بالرسول ولم يفرقوا في الإيمان بين رسول ورسول ، بل آمنوا بأن الله رسلاً وأنبياء وبدون استثناء كان الإيمان شاملاً لهم جميعاً . هذا على طريق الإجمال أما على طريق التفصيل فقد آمنوا بالرسول الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وهم خمسة وعشرون جمعهم أحدهم في قوله :

في تلك حجتنا منهم ثمانية . من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومن آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وجب عليه أن يؤمن بكل ما جاء به محمد ﷺ ، وذلك كالبعث بعد الموت والقدر خيره وشره . وقد جاء بعد ذلك التصديق بالقلب بالالتزام المطلق . قال تعالى : ﴿ وسمعنا وأطعنا ﴾ إذ حقيقة الإيمان كما قال الهادي البشير : ﴿ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ﴾ . ثم طلبوا من الله غفران الذنوب لأنهم يعتقدون أن المصير والمرجع والمآب إليه . ولقد من الله عليهم بعد ذلك بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ أي لا يحملها إلا ما تطيق حمله . فإن الله تعالى فرض فرائض فأدوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرّم حرمات فلا تنتكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . وقد دعا المؤمنون ربهم بتلك الدعوات : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ والنسيان هو فعل الشيء بدون تذكر ، كمن شرب أو أكل ناسياً في نهار رمضان . والخطأ هو فعل الشيء بدون قصد كمن سبق ماء المضمضة إلى جوفه وهو صائم ، ولقد بشر الصادق المعصوم الأمة بتلك البشارة فقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ المراد بالإصر مائتل من التكليف كما كان ذلك في بني إسرائيل كقطع مكان النجاسة من الثوب ودفع ربع المال في الزكاة . ثم جاءت هذه الدعوة الكريمة ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي من الشدائد والبأساء والضراء والمصائب والبلاء . إذ أننا عبید إحسانه ونسأله العافية . ثم جاء بهذه الدعوات ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾ اعف عنا فلا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا واغفر لنا فلا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا وارحمنا فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به . فتوجهت كل دعوة من هذه الدعوات إلى ما يناسبها من الدعوات السابقة .

﴿ أنت مولانا ﴾ أى مالك أمرنا فليس لنا مولى سواك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ برفع راية التوحيد ولواء الإسلام .

وقله اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون لكل نفس ما كسبت من الخير وعليها ما اكتسبت من السوء لا تُظلم نفس شيئاً . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وقد اشتملت سورة البقرة على أصول العقائد وشعائر العبادات ومناهج السلوك ومبادئ الأحكام وقواعد النظام فكان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة (أى السحرة) والبيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان . وقد بدأها الله تعالى بالحديث عن الإيمان وختمها كذلك . وجاء فى آخرها آيتان نزلتا من كنز تحت العرش فكانت هذه السورة شافية كافية ، وافية فمن أخذها فقد أخذ بحظ وافر ، وله عند الله أجر كبير . نسأل الله ثوابها والعمل بها إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير .

وصلّى الله عليه سيدنا محمد البشير النذير .



سورة آل عمران

من أسمائها : آل عمران والزهراء .

عدد آياتها : مائتان بإجماع القراء .

وهذه السورة مدنية : باتفاق جميع المفسرين . وكذلك كل سورة تشتمل على ذكر أهل الكتاب .

وكلماتها : ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون . وحروفها : أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمس وعشرون

حرفاً .

مجموع فواصل آياتها (ل ق د ا ط ن ب م ر) يجمعها قولي : (لقد أظنُّ مَرَّ) والقاف آخر آية واحدة

﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ والهمز آخر ثلاث آيات ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ ﴿ إنك

سميع الدعاء ﴾ ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ .

مضمون السورة : مناظرة وفد نجران ، إلى نحو ثمانين آية من أولها ، وبيان المحكم والمشابه ، وذم

الكفار ، ومذمة الدنيا ، وشرف العقبى ، ومدح الصحابة ، وشهادة التوحيد ، والرد على أهل الكتاب ،

وحديث ولادة مريم ، وحديث كفالة زكريا ، ودعائه ، وذكر ولادة عيسى ومعجزاته ، وقصة الحوارين ،

وخبر المباهلة (من البهلة وهي اللعنة) وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على

الكاذبين ﴾ . والاحتجاج على النصارى ، ثم أربعون آية في ذكر المرتدين ، ثم ذكر خيانة علماء يهود ، وذكر

الكعبة ، ووجوب الحج ، واختيار هذه الأمة الفضلى والنهي عن موالة الكفار ، وأهل الكتاب ، ومخالفة

الملة الإسلامية . ثم خمس وخمسون آية في قصة حرب أحد ، وفي التخصيص ، والشكوى من أهل المركز

(هو الموضع يؤمر الجند أن يلزموه . وأهل المركز هم الرماة الذين أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن

يلزموا أماكنهم بجانب أحد) . وعذر المنهزمين ومنع الخوض في باطل المنافقين ، وتقرير قصة الشهداء

وتفصيل غزوة بدر الصغرى ثم رجوع إلى ذكر المنافقين في خمس وعشرين آية ، والظعن على علماء اليهود ،

والشكوى منهم في نقض العهد ، وترك بيانهم نعت رسول الله ﷺ المذكور في التوراة ، ثم دعوات

الصحابة ، وجدهم في حضور الغزوات واغتنامهم درجة الشهادة ، وختم السورة بآيات الصبر والمصابرة

والرباط .

فضل السورة : عن أبي بريدة عن أبيه رضى الله عنه مرفوعاً : « تعلموا البقرة وآل عمران فانهما

الزهراوان يظلان صاحبها يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف »^(١)

وجه اتصالها بما قبلها

١- إن كلاً منها بدى بذكر الكتاب وحال الناس في الاهتداء به - فقد ذكر في الأولى من آمن به ومن

لم يؤمن به والمذبذبون بين ذلك ، وفي الثانية طائفة الزائفين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ط الأوقاف .

الراسخين في العلم الذين يؤمنون بحكمه ومتشابهه ، ويقولون كل من عند ربنا .

٢- إن في الأولى تذكيراً بخلق آدم ، وفي الثانية تذكيراً بخلق عيسى وتشبيه الثاني بالأول في أنه جرى على سنة سابقة في الخلق .

٣- إن في كل منها حاجة لأهل الكتاب ، لكن في الأولى إسهاب في محاجة اليهود واختصار في محاجة النصارى ، وفي الثانية عكس هذا ، لأن النصارى متأخرون في الوجود عن اليهود فليكن الحديث معهم تالياً في المرتبة للحديث الأول .

٤- إن في آخر كل منها دعاء ، إلا أن الدعاء في الأولى ينحونحو طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ورفع التكليف بما لا يطاق ، وهذا مما يناسب بداءة الدين . والدعاء في الثانية يرمى إلى قبول دعوة الدين وطلب الجزاء على ذلك في الآخرة .

٥- إن الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها ، فبدئت الأولى بإثبات الفلاح للمتقين ، وختمت هذه بقوله : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا آتَى اللَّهَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ المـ ﴾ حروف هجائية فيها إشارة أن هذا القرآن معجز لا يستطيع أحد أن يأتي بسورة من مثله ﴿ الله ﴾ : علم على واجب الوجود لذاته وهو المتصف بالجلال والكمال والجمال والإله هو : المعبود بحق المستغنى عمّن سواه المفتقر إليه جميع ما عداه ﴿ الحى ﴾ ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة ﴿ القيوم ﴾ : القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه ﴿ نزل ﴾ يفيد التدريج ، والقرآن ، نزل كذلك فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث وعبر عن الوحي مرة بالتنزيل وأخرى بالإنزال للإشارة إلى أن منزلة الموحى أعلى من الموحى إليه ومعنى كونه بالحق أن كل ما جاء به من العقائد والأحكام والحكم والأخبار فهو حق لا شك فيه . ﴿ بين يديه ﴾ هى الكتب التى أنزلت على الأنبياء السابقين ، ﴿ التوراة ﴾ : المقصود بها الكتاب المنزل على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ومعنى هذه الكلمة الشريعة ﴿ الإنجيل ﴾ : المراد به الكتاب المنزل على نبي الله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهذه الكلمة معناها البشارة ﴿ الفرقان ﴾ هو الحق الذى يفرق الله به بين الهدى والضلال . ﴿ الانتقام ﴾ : مأخوذ من النعمة يقال : انتقم منه إذا عاقبه بجنائته ، والتصوير جعل الشىء على صورة لم يكن عليها ، والصورة هيئة يكون عليها الشىء بالتأليف . ﴿ الأرحام ﴾ واحدها رحم ، وهى مستودع الجنين من المرأة والمحكم من أحكام الشىء بمعنى وثقه وأتقنه . والأم فى اللغة الأصل الذى يتكون منه الشىء والمتشابه : يطلق تارة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً ، وتارة أخرى على ما يشبهه من الأمور ويلتبس . والزيف : الميل عن الاستواء والاستقامة إلى أحد الجانبين والمراد به هنا ميلهم عن الحق إلى الأهواء الباطلة ، والتأويل : من أول وهو الرجوع إلى الأصل ومنه الموضع الذى يرجع إليه ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ : هم المتفقهون فى الدين ، ﴿ من لدنك ﴾ : أى من عندك والمراد بالرحمة العناية الإلهية والتوفيق الذى لا يناله العبد بكسبه . وجمع الناس الحق حشرهم للحساب والجزاء . ﴿ لا ريب فيه ﴾ : أى إننا موقنون به لا نشك فى وقوعه لأنك أخبرت به وقولك الحق .

نزل صدر هذه السورة الكريمة فى وفد نجران وقد بلغ عدد الآيات التى نزلت بهذا الصدد ثلاث وثمانون آية ، وقصة هذا الوفد كما رواها ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر ، قالوا : إن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله ﷺ وكانوا نحو ستين راكباً وخاصموه فى عيسى ابن مريم وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى ! قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا لا قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم ، كيف شاء وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً . فأنزل الله : ﴿ ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر

تلك الآيات وهي الآية الثالثة والثمانون^(١)

قال المفسرون ووجه الرد عليهم فيها - أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفي عقيدة التثليث بادئ ذي بدء ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً : أى قامت به السموات والأرض وهي قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحي وشرع الشرائع قبل وجوده كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء وإنما هو نبي مثلهم ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل وعيسى لم يكن واهباً للعقول ، ثم قال إنه لا يخفى عليه شيء ليرد على استدلالهم على إلهوية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى عليه شيء مطلقاً سواء أكان فى هذا العالم أم فى غيره من العوالم السماوية ، وعيسى لم يكن كذلك ثم أبان أن الإله هو الذى يصور فى الأرحام ليرد على ولادة عيسى من غير أب ؛ إذ الولادة من غير أب ليست دليلاً على الإلهوية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف يشاء وعيسى لم يصور أحداً فى رحم ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

وقد بدأ الله تعالى هذه السورة الكريمة بتلك الحروف الهجائية ﴿ أَلَمْ ﴾ التى جاءت إشارة إلى أن هذا الكتاب الذى نزل بتلك الحروف كتاب معجز : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(٢) وقال سبحانه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾^(٣) . وقد جاء قوله تعالى بعد ذلك ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ كالإجابة عن سؤال تقديره من أنزل هذا الكتاب المعجز ، وهذه كلمة حق ، فالله وحده هو الذى أنزله إذ غيره عاجز كل العجز أن يأتى بسورة من مثله ، قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾^(٤) . وقال عز وجل : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾^(٥) . وجل جلال الله ، إذ يصف ذاته الأقدس بالحياة والقيومية ففى آية الكرسي قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ . وفى سورة آل عمران ، يقول الله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ وفى سورة طه : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾^(٦) . وقد قال فريق من المفسرين : إن الحى القيوم هو اسم الله الأعظم ، الذى ما سئل به إلا أعطى وما دعى به إلا أجاب^(٧) . وما أعظم أن يخبر الله عن ذاته بالوحدانية والحياة والقيومية ، وقد جاء فى الدعوات الماثورة : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٦٨ ، ٦٩ ط دار زهران للنشر . (٥) سورة النساء آية : ١٦٦ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

(٣) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) سورة هود آية : ١٤ .

(٦) سورة طه آية : ١١١ .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٩٣ ط وزارة الأوقاف .

كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . . فلفظ الجلالة (الله) هو العلم العظيم على الذات الأقدس والإختيار عنه بلا إله إلا هو إختيار بالوحدانية ، قال ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبل لا إله إلا الله » وجميع الأنبياء من لدن آدم إلى أشرف الخلق محمد ﷺ عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ﷻ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﷻ (١) . والحياة صفة قديمة وجودية قائمة بذاته تعالى تصحح الإلتصاف بصفات الكمال ، فهو الحى العالم المرید السميع البصير صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، القيوم على عباده الذى به قامت السموات والأرض ﷻ ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ﷻ (٢) . القائم على كل نفس بما كسبت ﷻ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﷻ (٣) . له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﷻ (٤) . إن صفة الحياة واجبة لذاته سبحانه فهو جل جلاله أول بلا بداية وآخر بلا نهاية لا يعتريه نقص ، ولا يطرأ على حياته فناء .

﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسيح يحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ (٥) .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهيمن باق

قوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ أى هذا الإله الواحد الحى القيوم هو الذى نزل عليك الكتاب منجماً على حسب مقتضيات الحال وقد اقتضت حكمته العليا ومشيئته العظمى أن يتدرج فى التشريع لعباده لأنه عليم بذات الصدور وهذا الكتاب الذى نزل عليه قال عنه منزله ﷻ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﷻ (٦) . هو فى منزلة عظمى ودرجة عليا وقد نزل متلبساً بالحق ﷻ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﷻ (٧) . وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﷻ (٨) . والحق ضد الباطل وهو اسم من أسماء الله تعالى . قال تعالى ﷻ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﷻ وهذا الكتاب نزل مصداقاً ومؤيداً للكتب السابقة المنزلة على الأنبياء من قبل ؛ إذ صحت كلها تتبع من مشكاة واحدة فهو الذى أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس قال تعالى ﷻ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع

(٥) سورة الفرقان الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) سورة الزخرف آية : ٤ .

(٧) سورة فصلت آية : ٤٢ .

(٨) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ٤٢ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴿١﴾ . فالكتب السماوية من توراة وإنجيل وزبور وقرآن يصدق بعضها بعضاً فسابقها يمهد للاحقها ولاحقها يكمل سابقها . . قال عليه الصلاة والسلام : (مثل ومثل النبيين قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت تلك اللبنة فأنا تلکم اللبنة وأنا خاتم النبيين) ﴿٢﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ المراد به الحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الباهرة والبيّنات الواضحة التي يفرق بها العقلاء بين الحق والباطل والهدى من الضلال . ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ ﴿٣﴾ . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾ ﴿٤﴾ وقال جل شأنه : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ ﴿٥﴾ وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ ﴿٦﴾ وتقوى الله تجعل المؤمن ينظر بنور الله فيرزقه الله فرقاناً يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ ﴿٧﴾ ليس لأحد حجة على الله بعد بيان الطريق المستقيم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ ﴿٨﴾ ، وكفرهم بآيات الله حجود وإنكار وكبر وإستعلاء مع علمهم واستيقانهم أن الله حق ، قال سبحانه : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ﴿٩﴾ . وقال موسى لفرعون قال : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشوراً ﴾ ﴿١٠﴾ وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ * ألا إنهم في مربة من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴿١١﴾ ، والعذاب الشديد هو المؤلم الموجه ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ * نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة ﴿١٢﴾ ، والله عزيز غالب لا يغلبه أحد ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علياً قديراً ﴾ ﴿١٣﴾ ، وهو المنتقم الذي يجازى بالعقاب الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ومن على شاكلتهم من أهل سوء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ دليل العليم المحيط والبصير فهو العليم البصير علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون وكلمة ﴿ شيء ﴾ نكرة جاءت في سياق النفي فأفادت عموم العلم ودقته أي لا يخفى عليه أي شيء في الأرض التي نعيش عليها

(٨) سورة آل عمران آية : ٤ .

(٩) سورة النمل آية : ١٢ .

(١٠) سورة الإسراء آية : ١٠٢ .

(١١) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .

(١٢) سورة الهمة الآيات : ٥ - ٩ .

(١٣) سورة فاطر آية : ٤٤ .

(١) سورة المائدة الآيات : ٤٦ - ٤٨ .

(٢) جامع الأحاديث للسيوطي ج ٦ ص ١٢

(٣) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .

(٥) سورة الإسراء آية : ١٢ .

(٦) سورة يونس آية : ٥٧ .

(٧) سورة الانفال الآية : ٢٩

ولا في السماء التي تظلنا ، وهذا هو الكون الذي نحيا فيه ، فالأرض تحتنا والسماء فوقنا ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (١) ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (٢) .

يامن يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها في قاع بحر زاهر متجندل

إن هذا الذي أحاط بكل شيء علماً وأحاط بكل شيء عدداً ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ أى يخلقكم في الهيئة والصورة التي يشاؤها .. هو سبحانه .. وعالم الأرحام عالم عجيب ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ فجعلناه في قرار مكين ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ فقد رنا نعم القادرون ﴿ (٣) ﴾ . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ (٤) . وقال سبحانه : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴿ (٥) ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ (٤) ﴿ أى يعلم حقيقتها وأرزاقها وعددها وآجالها ويعلم ما في الأرحام كلها من إنسان وحيوان فلا يقولن قائل إن العلم قد تقدم واستطاعت الأشعة أن تعرف ما في الأرحام من ذكورة وأنوثة فنقول لمن قال : لقد غابت عنك أشياء كثيرة لأن تعبير النص القرآني جاء بما ، لا ، بمن وما تطلق ويراد بها حقيقة الشيء فهل يستطيع العلم بأشعته أن يتوصل إلى حقيقة النطفة وهى نطفة إن كان المخلوق منها ذكراً أو أنثى ؟ وهل يستطيع أن يصل إلى حقيقة ما في الأرحام من إنسان وحيوان وغير ذلك من المخلوقات والكائنات التي تتوالد وتتكاثر وهل يستطيع العلم بأشعته أن يعرف الأشياء المتعلقة بما في الأرحام من كم وكيف وأجل ورزق وسعادة وشقاء وعمل إن هذه المسألة في خمسة أمور من الغيب لا يعلمها إلا الله .

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ (٧) .

هذا خلق الله : وعالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم وقدره الله الذي أنزل القرآن

(٥) سورة الرعد الآيات : ٨ ، ٩

(٦) سورة لقمان آية : ٣٤

(٧) سورة لقمان آية : ٣٤

(١) سورة الرحمن آية : ٣٣

(٢) سورة المجادلة آية : ٧

(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣

(٤) سورة الحج آية : ٥

وعلى صدق الرسول سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن فإن الأطوار التى يمر بها الإنسان ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ (١) .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام نخبّر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ثم يذكرون أبعاده فيقولون إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات . . والقرآن الكريم يسمي هذا الرحم : قراراً مكيناً ، حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين ﴾ * إلى قدر معلوم * فقدردنا فنعم القادرون ﴾ .

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا ، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ (٢) . ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ (٣) ؟ .

﴿ مم خلق ﴾ : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم ، نصف مليمتر فى الثانية الواحدة ويتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان .

فكيف كان عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر . وهو فى الأرحام - خمسة أرتال وعندما بلغ تسعة أشهر - كان وزنه سبعة أرتال أو ثمانية فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق ؟ .

ذلك لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تقلص عضلاته - حيث أصبح الإنسان ضيقاً ثقيلاً عليه - فتقلصت العضلات فعبّر الإنسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شيء خلقه ﴾ * من نطفة خلقه فقدره ﴾ * ثم السبيل يسره ﴿ (٤) فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ : يقول الله عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٥) . وبمنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ ، تفيد نفى العلم بالكلية إذ يقول علماء اللغة إن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله

(٤) سورة عبس الآيات : ١٨ : ٢٠ .

(٥) سورة النحل آية : ٧٨

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

(٢) سورة الزمر آية : ٦

(٣) سورة الطارق آية : ٥

ولتقابل هذا بالشكر والشكر لله : أن نسخر نعم الله في طاعته وألا نستعملها في معصيته :
 قال موسى عليه السلام لربه : « يا رب : كيف أشكرك » قال له يا موسى : « تذكرني ولا تنساني .
 إنك إن ذكرتني : شكرتني ، وإن نسيتني كفرتني » وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا
 لي ولا تكفرون ﴾ وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز في يديه وهو يردد
 بلسانه قائلاً : « الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه » فقال له الرجل : فمن أي شيء عافاك ؟
 قال له : « وهب لي قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً » .
 ثم أنشد يقول :

حمدت الله ربى إذ هداني إلى الإسلام والدين الحنيف
 فيذكره لساني كل وقت ويعرفه فؤادي باللطيف

قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أى إن الذى صوركم فى الأرحام واحد لا شريك له ،
 عزيز لا يغلبه حكيم لا يعيبه ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن
 يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

يا ابن آدم

أنت الذى ولدتك أمك باكياً والناس حولك يضحكون سروراً
 فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً
 تذكر جميل مذ خلقتك نطفة ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشا
 وسلم إلى الأمر واعلم بأننى أدبر أحكامى وأفعل ما أشاء

لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له من خالقك لأجابه بلسان
 الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة
 كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرة
 فانظر وقل من ذا الذى يخرج منها الثمرة
 ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
 ذو حكمة بالغفة وقدرة مقتدرة

انظر إلى الشمس التى جذوتها مستعرة
 فيها ضياء وبها حرارة متتشرة
 من ذا الذى أوجدها فى الجومثل الشرة
 ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
 ذو حكمة بالغفة وقدرة مقتدرة

انظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه	بقوة مفتكرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة
انظر إلى الليل فمن	أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم	كالدرر المنتثرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

قيل لأحد العارفين بالله ما الدليل على وجود الله قال : ومتى غاب سبحانه حتى تسألوني عن وجوده ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وأنكره الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله وقيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ فقال رضى الله عنه ومتى لم يكن : هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ، وهو بكل شىء عليم .

حبيبى لا يعادله حبيب وما لسواه فى قلبى نصيب
حبيب جل عن شخص وعينى ولكن عن فؤادى لا يغيب

قيل للإمام على : هل رأيت ربك ؟ قال وكيف أعبد ما لا أرى . فقالوا فكيف رأيته ؟ قال إن كانت الأعين لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين
إن آيات الملكوت كلها ناطقة بوحدانية الخالق .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات وفى أبصارها الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ الله خير أمّا يشركون * آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * آمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون * آمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون * آمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴿ (١) .

تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك أنت الغني ونحن الفقراء إليك سبحانه أنت القائل : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

المفردات : ﴿ محكمات ﴾ : ظاهرات الدلالة لا خلاف فى معناها .

﴿ متشابهات ﴾ يقال اشتبه الأمر عليه أى التبس ، فالتشابهات التى لم يظهر معناها وتتضح ، بل خلف ظاهر اللفظ المعنى المراد ، وقيل ما استأثر الله بعلمه . ﴿ زيف ﴾ ميل عن الحق . ﴿ تأويله إلا الله ﴾ معرفة حقيقته وبيان ما يؤول إليه فى الواقع ﴿ الراسخون ﴾ الثابتون فى العلم المتأكدون منه

التفسير : قوله تعالى ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ يفيد أن الذى أنزل الكتاب هو الله وحده ، وذلك فيه رد على الذين قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ^(١) . وقالوا : إنه ﴿ سحر مفترى ﴾ ^(٢) وقالوا : ﴿ أساطير الأولين ﴾ ^(٣) فإذا كان الله وحده هو الذى أنزله ، فقد تنزه الكتاب الكريم عن البشرية والسحر والأساطير ، فهو كما قال منزله جل شأنه : ﴿ وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ ^(٤) قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ هذا تقسيم لآيات القرآن إلى : محكم ومتشابه .

وفى القرآن الكريم آيات تفيد أن آيات القرآن محكمة كلها ، كما فى قوله جل شأنه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ ^(٥) كما أن فى القرآن الكريم ما يفيد أن القرآن متشابه كله ، وفى هذه الآية التى بين أيدينا ما يفيد أن بعض آياته محكم وبعضها متشابه ؛ فكيف التوفيق بين هذه النصوص ؟ .

إذا قلت : إن آيات الكتاب محكمة كلها فأنت صادق ؛ لأن الأحكام معناها أنها جاءت فى نسق رتيب ونظام بديع متقن ، وإذا قلت : إن آيات القرآن متشابهة كلها كما فى قوله جل شأنه : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ ^(٦) فأنت صادق ؛ لأن التشابه هنا معناها : أن آياته يشبه بعضها بعضاً فى الصدق والسلامة من العيوب والخلل والاختلاف ، وأن القرآن كله من عند الله ، نقل إلينا بطريق التواتر نتعبد بتلاوته ، ونتحدى جميع العالم أن يأتوا بسورة مثله أما قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ فإن المراد « بالمحكمات » الآيات الظاهرة الدلالة لفظاً ومعنى ، والمتشابهات هى الآيات التى يخفى على كثير من الناس ما تدل عليه ، فلها لفظ ولها معنى يدركه ويعرف حقيقته الله ، كما أن تفسيره يعرفه الراسخون والثابتون فى العلم ، وذلك كالأيات التى يوهم ظاهرها المشابهة فى قوله جل شأنه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ^(٧) وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ ^(٨) وقوله : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ ^(٩) وقوله : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ ^(١٠) . فعلماء السلف ومنهم الإمام مالك بن أنس يقولون : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » فإنه تعالى كان ولا

(١) جزء من الآية ١٠٣ من سورة النحل .

(٢) من الآية ٣٦ من سورة القصص .

(٣) جزء من آيات كثيرة منها الآية ٢٥ من سورة الأنعام .

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الرحمن .

(٥) من الآية ١٠ من سورة الفتح .

(٦) من الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٧) من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٨) من الآية ١ - من سورة هود .

مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان وهذا في قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وهكذا يقال في الآيات الباقيات ، يقولون : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب ، وقل ذلك : في كل الآيات المتشابهات ، إذ أنهم يردون هذه الآيات إلى الآيات المحكمات ، ومن هذه الآيات المحكمات قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾ ^(٢) وقوله جل شأنه : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ^(٣) .

ويرى الخلف تأويل هذه الآيات وتفسيرها تفسيراً يليق بذات الله : فيفسرون الاستواء على العرش بمعنى الهيمنة الكاملة والعلو والرفعة ، ويفسرون الوجه بمعنى الذات ، واليد بمعنى القدرة ، والعين بمعنى العناية والرعاية ، ويفسرون الحديث الشريف « إن قلوب بني آدم جميعاً بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » ^(٤) يفسرون الإصبعين بالإرادة والقدرة .

والفرق بين السلف والخلف أن السلف يثبتون الاستواء والوجه والعين واليد والإصبعين لكن بلا كيف ولا تمثيل ، إنما بدون تشبيه أو تجسيد ، وهذا هو المعنى الذي يليق بذات الله ؛ فلا العرش يحمله ولا الكرسي يسند ، بل العرش وحملته والكرسي وعظمته : الكل محمول بجلال قدرته ، مقهور بعظيم إرادته .

أما الخلف فإنهم يؤولون هذه الآيات إلى المعاني التي تليق بالذات الأقدس ، ومن ثم فقد قالوا : إن قول السلف أسلم ، وقول الخلف أحكم ، والكل يهدف إلى التنزيه والتعظيم ، ونفى التجسيد والتشبيه ، والكل هدفه سليم وبريء من الزيغ .

أما قوله تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ هؤلاء هم أصحاب القلوب المريضة التي تميل بالهوى ، ويميل بها الهوى فتتنكب الصراط السوى ، وتجنأ سبيل الحق ، إنهم لا يردون التشابه إلى المحكم ؛ إنما يتبعون التشابه بعيداً عن المحكم فيشبهون ويحسدون ، يتبعون بذلك الفتنة . أى : فتنة الناس في دينهم ، وإشعال نار الكفر ، أو يشبهون الله بالحوادث ، هو سبحانه مخالف لخلقه ، تنزه عن الشريك ذاته ، وتقصدت عن مشابهة الأغيار صفاته . بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، موصوف بلا نهاية ، واحد لا من عله ، وموجود لا من قلة ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متكيف ولا متلون ، لا يسأل عنه بما ، إذ لا يعرف حقيقة الله إلا الله ، ولا يسأل عنه بمتى ؛ لأنه خالق الزمان ، فلا يحكم عليه بالزمان ، وما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك والقول الحق في ذلك . ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ^(٥) .

إن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون التشابه من الآيات ، بعيداً عن المحكمات التي هي أم الكتاب

(٤) متفق عليه ..

(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١١١ من سورة طه .

(٣) سورة الإخلاص .

وأصله ، ابتغاء إشعال الفتن وابتغاء تأويله ، أى البعد به عن مراد الله من التنزيه والتقديس والتمجيد والتعظيم .

ومن الذين فى قلوبهم زيغ ، والذين اتبعوا المشابهة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، هؤلاء الذين انحرفوا بشريعة المسيح فألهوه وعبدوه .

فقد كانوا يتبعون المشابهة من آيات القرآن ، فيميزون بها المسيح عن بقية البشر مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾^(١) فرد القرآن عليهم بأن القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ ، بعض آياته محكمات واضحات ظاهرات لا خلاف بين ظاهر اللفظ والمعنى المراد منها كقوله تعالى مثلاً : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾^(٢) وكقوله فى شأن عيسى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(٣) وكآيات الأحكام مثل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾^(٤) وهكذا المحكم كل ما لا يحتمل من التأويل المعتد به إلا وجهاً واحداً .

وهن - أى المحكمات : ﴿ أَمْ الْكِتَابُ ﴾ وعماده ومعظمه وأصله الذى دعى الناس إليه ، ويمكنهم فهمه ، وعنهما يتفرع غيرها ويحمل عليها ، وهى أكثر ما فى القرآن فإن اشتبه علينا من الآيات آية ، ردت إلى المحكم وحملت عليه ، مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ترد وتحمل على قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾^(٥) وقوله : ﴿ إِنْ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ ﴾^(٦) بمعنى أننا نؤمن بأن الكل من عند الله وأنه لا ينفى الأصل المحكم .

أما الآيات المتشابهات كقوله تعالى فى عيسى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ من سورة النساء ، وكقوله ﴿ مَتَوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى ﴾^(٧) فى شأن عيسى ، وكقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ . ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ . فهذه آيات متشابهات تحمل عدة معان ، ويخالف ظاهر اللفظ فيها المعنى المراد ، فهى مما استأثر الله بعلمه ، فليس لكم أيها النصارى أن تحتجوا بأمثال هذه الآيات ، فإنها من المتشابهة الذى يحتمل عدة معان ، والله أعلم بها ، وكيف لا تدينون بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾^(٨) وتتمسكون بآيات استأثر الله بعلمها هو ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ وميل عن الحق إلى الباطل ، فيتبعون المتشابهة من القرآن وغيره ، ويتركون المحكم ابتغاء فتنة الناس وإضلالهم ، ولكى يتأولوا تأويلاً غير سائغ فى العقل ، ولكنه موافق لأوهامهم وضلالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ المراد بالتأويل هنا ما يؤول إليه الشئ ويرجع ، مأخوذ من المأل وللتأويل هنا معنيان : فإن أريد به معرفة ما يؤول إليه من حقائق ، كحقيقة ما يجرى فى الدار الآخرة من

(٦) من الآية / ٥٩ من سورة الزخرف .

(٧) من الآية / ٥٩ من سورة آل عمران .

(٨) من الآية / ٥٥ من سورة آل عمران .

(٩) من الآية / ١٧٢ من سورة النساء .

(١) من الآية / ١٧١ من سورة النساء .

(٢) من الآية / ٣٣ من سورة الأسراء .

(٣) الآية / ٥٩ من سورة الزخرف .

(٤) من الآية / ١٥١ من سورة الأنعام .

(٥) من الآية / ١٧١ من سورة النساء .

حساب وميزان وكتاب وصراط ؛ فقف على لفظ الجلالة ، وقل : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ إذ هذه من الأمور التي استأثر الله تعالى بعلم حقيقتها ، وذلك كما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (١) فقله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا ما يؤول إليه حقيقة هذا اليوم ، ولا يعلم حقيقته إلا الله وحده .

وإن كان التأويل بمعنى التفسير فعليك أن تعطف قوله تعالى : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ على لفظ الجلالة فتقرأ : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ إذ أن التأويل هنا يأتي بمعنى التفسير كما في قوله تعالى : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ (٢) أى تفسيرها ، وقد كان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس يقول : متحدنا بنعمة الله عليه ، إني أعلم تأويله فأنا من الراسخين في العلم ، وذلك ببركة دعوة النبي ﷺ له : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) وتكون جملة ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ جملة حالية أى في محل نصب على الحال .

ولما خص الراسخين في العلم حتى لا يفتح الباب أمام أصحاب الأهواء والجهلة .

أما إذا وقفت على لفظ الجلالة ، فإن جملة ﴿ والراسخون في العلم ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ يقولون آمنا به ﴾ ومعنى ﴿ آمنا ﴾ أى صدقنا وأيقنا أن آيات الكتاب سواء في ذلك محكمة ومتشابهة ، كل من عند ربنا .

ولما خص الله تعالى الراسخين بهذا الفضل قال : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ أى وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا ذوو البصائر المستنيرة والعقول الراجحة ، التي امتازت بالتدبر والتفكر في جميع الآيات المحكمة التي هي الأصول ، حتى إذا عرض لهم المتشابه بعد ذلك سهل عليهم أن يتذكروها ، ويردوا المتشابه إليها ، ويقولوا في المتشابه الذي هو نبأ عالم الغيب إن قياس الغائب على الشاهد قياس مع الفارق ، لا ينبغي للعقل أن يعتبروه .

ثم ذكر ما يدعون به ليهبهم الثبات على فهم المتشابه فقال : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ أى أن أولئك الراسخين في العلم مع اعترافهم وإيمانهم بالمتشابه ؛ يطلبون إلى الله أن يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة ، فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فيخافون أن يقعوا في الخطأ والخطأ قرين الخطر .

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : « وليس من قلب إلا وهو بين

(١) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦ من سورة يوسف .

إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه ﴿١﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أى ربنا إنك تجمع الناس للجزاء في يوم لا شك فيه ، وإنا موقنون به لأنك أخبرت به ، وقولك الحق ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه وأنت لا تخلف وعذك .

وقد جاءوا بهذا الدعاء بعد الإيمان بالمتشابه ؛ ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يسلبهم الرحمة فى ذلك اليوم ، وهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقى منه .

ولسائل أن يقول : لم كان فى القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكماً يتساوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هادياً ، والمتشابه يحول دون الهداية ، لوقوع اللبس فى فهمه وفتح باب الفتنة فى تأويله لأهل التأويل . أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة منها :

١ - أن فى إنزال المتشابه امتحاناً لقلوبنا فى التصديق به ، إذ لو كان ما جاء فى الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه لأحد لما كان فى الإيمان به شيء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله .

٢ - إن فى وجوده فى القرآن حافزاً لعقول المؤمنين إلى النظر فيه ، كيلا تضعف وتموت ، إذ السهل الجلى لا عمل للعقل فيه ، وإذا لم يجد العقل مجالاً للبحث مات ، والدين أعز شيء على الإنسان ؛ فإذا ضعف عقله فى فهمه ضعف فى كل شيء ، ومن ثم قال : ﴿والراسخون فى العلم﴾ ولم يقل والراسخون فى الدين ، لأن العلم أعم وأشمل . فمن رحمته أن جعل فى الدين مجالاً لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه ، إذ بحثه يستلزم النظر فى الأدلة الكونية والبراهين العقلية ووجوه الدلالة ، ليصل إلى فهمه ويهتدى إلى تأويله .

٣ - إن الأنبياء بعثوا إلى الناس كافة ، وفيهم العالم والجاهل والذكى والبليد ، وكان من المعانى ، الحكم الدقيقة التى لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها ؛ فجعل فهم هذا من حظ الخاصة ، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله ، والوقوف عند فهم المحكم ، ليكون لكل نصيبه على قدر استعدادده ، فإطلاق كلمة الله ﷻ وروح من الله ﷻ على عيسى ، يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة ، ومن ثم فتن النصارى بمثل هذا التعبير ، إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه ، واستحالة أن يكون لله أم أو ولد بمثل ما دل عليه قوله: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ ﴿٢﴾ .

لا عبرة إلا بالحق

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابِ ۖ إِلَٰهٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ

(١) رواه مسلم .

(٢) من الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِي أَلْتَقَتَا فِتْنَةً تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى
الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ تغنى ﴾ : أى تنفع . ﴿ وقود ﴾ : بفتح الواو أى حطب ونحوه و ﴿ الدأب ﴾ : العادة . من
دأب على العمل إذا جد فيه وتعب ثم غلب في العادة . و ﴿ المهاد ﴾ : الفراش . يقال مهد الرجل المهاد إذا
بسطه . و ﴿ الآية ﴾ : العلامة على صدق ما يقول الرسول .

لما ذكر الله تعالى حال الراسخين الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ،
وأعلنوها صريحة مدوية لا لبس فيها ولا غموض ، وقالوا : ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ ذكر بعد ذلك حال
الكافرين ، ومنهم الذين في قلوبهم زيغ فاتبعوا ما تشابه من الآيات ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وكان
قصدهم مريضاً وهدفهم شراً مستطيراً ، ومن ثم : فإن لابن عباس رضى الله عنه كلمة في محكم الكتاب
ومتشابهه يقول فيها : التفسير على أربعة أنحاء : تفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من
لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

وعن مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال ، أن يكثر
لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذوه المؤمن يبتغى تأويله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله
والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه) .
وعن رسول الله ﷺ : (إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه
فآمنوا به) .

قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ إخبار منه سبحانه بأن
من كفر بالله وكذب بآياته ورسله لن ينفعه عند الله شيء ولن يغنيه ماله وولده في دفع العذاب عنه ، فإنه كما
قال سبحانه: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (١) وكما قال جل شأنه : ﴿ ومن يشرك
بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ (٢) وقوله : ﴿ فلا تعجبك
أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزحق أنفسهم وهم كافرون ﴾ (٣) وقد جاء الرد
مفحماً لهم عندما قالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ (٤) قال لهم سبحانه : ﴿ وما

(٣) الآية ٥٥ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٣٥ من سورة سبأ .

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٣١ من سورة الحج .

أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿١﴾ فالمال والولد لا يغنيان شيئاً ، وما أجل ما دعا به إبراهيم الخليل ربه : ﴿ ولا تحزنى يوم يبعثون ﴾ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ﴿٢﴾ وقد ردع القرآن هذا المفتري ، الذى ورد ذكره في قوله تعالى : ﴿ أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ﴾ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴿٣﴾ ، فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالفقاعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه .

قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ أى حطبها كما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ ﴿٤﴾ .

عن أم الفضل : أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : (هل بلغت) يقولها ثلاثاً - فقام عمر بن الخطاب - وكان أواها - فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجاهدت ونصحت فاصبر !! فقال النبي ﷺ : (ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى موطنه وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرأون القرآن فيقرؤونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا ؟؟ فما في أولئك من خير) قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : (أولئك منكم هم وقود النار) ﴿٥﴾ .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أى صنيع هؤلاء الكفار وحالهم وشأنهم ؛ مثل ذلك كله كصنيع آل فرعون وحالهم وشأنهم ، فالكل مكذب بآيات الله مستحق لعقابه ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ أكفركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر ﴾ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴿٦﴾ ، فكما كان مصير آل فرعون ، فسوف يكون مصير هؤلاء المكذبين على كر العصور والدهور ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ﴿٧﴾ . ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴿٨﴾ ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴿٩﴾ ، ﴿ قد خلعت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ﴿١٠﴾ . ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ ﴿١١﴾ نعم إن الذنوب تهلك الأمم ، وتلبسها لباس الخوف والجوع ، قف كثيراً عند قوله جل شأنه : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم

(٧) من الآية : ٦٢ من سورة الأحزاب .

(٨) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(٩) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(١٠) الآية : ١٣٧ من سورة آل عمران .

(١١) الآية : ٢١ من سورة غافر .

(١٢) الآية : ٦ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٣٧ من سورة سبأ .

(٢) الآيات : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .

(٣) الآيات : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من سورة مريم .

(٤) الآية : ٩٨ من سورة الأنبياء .

(٥) رواه مسلم .

(٦) الآيات : ٤١ - ٤٦ من سورة القمر .

وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿١٢﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله ؛ إنه قوى شديد العقاب ﴾ (١) وشدة عقابه هي العدالة التي لا يشوبها ظلم ، فإنه تعالى يهمل ولا يهمل ، اقرأ قوله جل شأنه : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (٤) .

إن الظلم لا يدوم ! وإذا دام دمر ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق باقية حتى قيام الساعة .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

قال سبحانه في الحديث القدسي الجليل : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) (٥) .

قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ جاء في سبب نزول تلك الآية الكريمة ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : إن يهود المدينة لما شاهدوا غلب رسول الله ﷺ للمشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبي الأمي الذي بشرنا به موسى وفي التوراة نعتة وهموا باتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شكوا ، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت .

وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش ، فقالوا له : لا يغرنك أنك لقيت قوماً أعماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس فنزلت (٦) .

في هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد وويل وثبور . جاء هذا التهديد للكافرين ، ومنهم اليهود الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فحسبوا أن الماديات مقاييس للنصر ، ونسوا أن في السباء مملكة ، وأن للكون إلهاً ، من خصائصه أنه يقول للشيء كن فيكون ، إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ولقد جاء هذا الإنذار بأنهم سيغلبون في الدنيا بأيدي الجماعة المؤمنة والفئة الموحدة : إنه إنذار لهم بأنهم سيغلبون في الدنيا وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم ، وبئس المهاد جهنم ، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ (٧) .

(٤) من الآية : ٥٩ / من سورة القصص .

(٥) من حديث رواه البخاري ومسلم .

(١) الآية : ٢٢ / من سورة غافر .

(٢) الآية : ١٠٢ / من سورة هود .

(٣) الآية : ١١٧ / من سورة هود .

(٦) وتمة كلام الرسول ﷺ : « فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم » من تفسير القرطبي عن ابن اسحاق ج ٤ ص ٢٤ .

(٧) الآية : ٤١ / من سورة الأعراف .

ولما كان القوم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات الملموسة فقد أقام لهم القرآن الكريم دليلا ماديا قاطعا على صدق ما قررته تلك الآية من حقائق ، وأثبتته من وعيد بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة : قال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ هاتان الفئتان فئة المؤمنين وفئة الكافرين ، التقتا يوم بدر ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ (١) . ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله . والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ (٢) .

وموضع العبرة أن المسلمين قبل نزول المعركة كانوا يرون المشركين قلة ! هكذا أراد الله حتى لا يشتد عليهم الموقف فينتابهم شيء من الضعف ، وكان المشركون كذلك قبل المعركة يرون المسلمين قلة ! أراد الله ذلك حتى يطمعوا في قتالهم ، قال تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾ (٣) . وبعد وقوع المعركة والتحام الصفوف ، كان المشركون يرون المسلمين مثليهم رأى العين ، أى رؤية لا خداع فيها ، وذلك ليقذف الله الرعب في قلوب أعدائه ، وتم النصر لأولياء الله ، كما أحاطت الهزيمة بأعداء الله .

فليست العبرة بالقوى المادية ؛ إذ النصر الحقيقي لا يملكه إلا من بيده مقاليد السماوات والأرض ، فالإله يرجع الأمر كله : قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴿ (٤) . . صدقت ربنا وقولك دائما صدق : ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ .

نعم إنهم أصحاب الأفئدة المستنيرة والقلوب الباصرة ؛ التى تدرك حكمة الله فى الأشياء ، فتسلك ببصرها مدارج الأنوار ، وتقف على حقائق الأسرار ، وتحيا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

متاع الحياة الدنيا

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الْمَعَآبِ (١٤)

المفردات :

﴿ الشهوات ﴾ : واحدها شهوة ، وهى رغبة النفس فى الحصول ، والمراد بها المشتبهات كما يقال :

(٣) الآية : ٤٤ من سورة الأنفال .

(٤) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الأنفال .

(١) من الآية : ١٩ من سورة الحج .

(٢) الآية : ٧٦ من سورة النساء .

هذا الطعام شهوة فلان أى ما يشتهي ، ﴿ والأنعام ﴾ واحدا نعم وهى الإبل والبقر والغنم ولا تطلق النعم إلا على الإبل خاصة . و ﴿ المسومة ﴾ : هى التى ترعى فى الأودية والقيعان و ﴿ الحرث ﴾ الزرع والنبات .

هذه الآية الكريمة اشتملت على ستة أمور سماها الله تبارك وتعالى الشهوات ، والشهوات كل ما تشتهي النفس ، فإن سار فى طريق الله هذا الأمر وسلك سبيل الخير كان حبا خيرا ، أما إذا انحرف المسار عن طريق الجادة فقد هوى صاحبها ، لأن غضب الله قد حل عليه ، قال تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ ^(١) فحب النساء إن كان فى حدود ما شرع الله فى الحياة الزوجية فهو نعمة من نعم الله ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ^(٢) أما إن كان ذلك فى طريق الغواية ، كالتخاذن والمسافة ، فهو وقوع فى الرذيلة ، وهبوط إلى مستقع آسن ، وما قيل فى حب النساء يقال فيما بعدها من البنين والمال ، فقد قال ﷺ : (نعم المال الصالح للعبد الصالح) أما إذا أدى المال إلى الشح والبخل والجبروت فبشر صاحبه بعذاب أليم قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ ^(٣) . وقال جل شأنه : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ ^(٤) وحب البنين الذى جاء بين حب النساء وحب المال : إن كان لتقواهم وصلاحهم وجهادهم فى سبيل الله وما يقدمونه من نفع للإسلام فذلك خير عظيم ، أما إن كان هذا الحب مجبنة مبخلة ، أى داعيه إلى الجبن والبخل ، فذلك شر مستطير ، وقل فى ذلك ما شئت من وجوه اللهو والبعد عن الله ، بسبب كثرة الأولاد ، قال تعالى على لسان الكافرين : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذيين ﴾ ^(٥) . فإن كانت الأولاد ستغرى الوالد وتطمعه فى الاعتداء على الآخرين ، فقد صار الأمر منذرا بالخطر ، وما قيل فى حب النساء والبنين والمال ، يقال فى الخيل والأنعام والحرث ، ولكن الحقيقة التى يجب أن يتبها الجميع لها : أن متاع الدنيا قليل ، وكما قال مولانا جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ ^(٦) ، وكما قال سبحانه : ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ^(٧) ، أى الحياة الكاملة الباقية الخالدة ، أما المرجع الحسن والمال السعيد والمسكن الطيب فهو عند الله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ^(٨) .

فهل تبيع الخلد يا غافلا وتشتري دنيا المني والضلال

(١) من الآية : ٨١ من سورة طه .

(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .

(٣) الآية : ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية : ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .

(٥) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .

(٦) من الآية : ٩٦ من سورة النحل .

الخير عند الله للمتقين

* قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّٰبِرِيْنَ وَالصَّٰدِقِيْنَ وَالْقَانِتِيْنَ وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

المفردات : النبأ والأنباء: لم يردا في القرآن إلا لاله شأن عظيم: والتقوى : هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . والرضوان : الرضا والمطهرة : الخالية من الشوائب الجسمية والنفسية . والصبر : حبس النفس عند كل مكروه يشق عليها احتماله . والصدق يكون في القول والعمل والوصف . يقال فلان صادق في قوله وصادق في عمله وصادق في حبه و﴿القانتين﴾ : أى المداومين على الطاعة والعبادة و﴿المستغفرين بالأسحار﴾ : أى المصلين وقت السحور .

بعدما أخبر الله سبحانه بقوله ﴿والله عنده حسن المآب﴾ ذكر بعد ذلك تفصيلا لحسن المآب ، فخطب نبيه ومصطفاه ﷺ بقوله ﴿قل﴾ أى أخبرهم يا محمد بما هو خير مما تقدم من حب الشهوات الذى ذكر مفصلاً ، من النساء والبنين إلى آخره ، إنه الخير الكبير الذى أعده الله للمتقين من النعيم الحسى والمعنوى ، فقد تمثل النعيم الحسى فى جنات تجرى من تحتها الأنهار والأنهار فى الجنة كما بينها الله تعالى فى قوله : ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ (١) ويكمل نعيم الجنة بالخلود فيها، فهذا هو معنى الأمن ، إذ لا فرع ولا قلق ولا طرد ، كذلك يتمثل النعيم المادى فى الأزواج المطهرة ، والطهارة هنا بمعناها الواسع : حسية من الفضلات والإفرازات ومعنوية بطهارة القلوب من الحقد والحسد والبغضاء ، قال سبحانه : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ (٢) ثم يأتى بعد ذلك النعيم المعنوى عندما يقول الله تعالى لأهل الجنة : أرضيتم فيقولون وكيف لا نرضى ياربنا وقد آتيتنا ما لم تؤت أحداً من خلقك ، فيقول أنا أعطيكم أكثر من هذا ، أحل عليكم رضوانى الذى لا أسخط بعده أبداً ، وهذا مصداق قوله جل شأنه : ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ (٣) .

يامالك النفس قاصيها ودانيها	رضاك خير من الدنيا وما فيها
سوى رضاك فذا أقصى أمانها	فليس للنفس آمال تحققها
خير إلى من الدنيا وما فيها	فنظرة منك يأسؤلى ويأملى

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ دليل على أنه سبحانه حكيم يعطى الخير لأهله ، فمن رضى فله الرضا ، قد تنزه سبحانه عن العيب ، وقد منح هؤلاء العباد النعيم في أكرم صورة ، فهم الذين قالوا : ﴿ ربنا آمنا ﴾ وهم الذين دعوه أن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يقيهم عذاب النار ، إنهم الذين وصفهم سبحانه بالصبر والصدق والطاعة وإنفاق المال في سبيل الخير والاستغفار وقت السحر .

كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالتوبة والاستغفار فيقول : (أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله واستغفره في اليوم مائة مرة)^(١) .

ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وقد ورد في الحديث ما يبين فضل الاستغفار في الأسحار ، وثبت في الصحيحين عن جماعة من الصحابة : أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : « . . من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره فأنتهى وتره إلى السحر » .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يصلى من الليل ثم يقول : « يانافع^(٢) هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ! أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح » ، وعن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه^(٣) . . . وعن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة .

الوحدانية الخالصة

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِثَايِتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

(١) متفق عليه .

(٢) نافع هو غلام عبد الله بن عمر وأحد أفراد سلسلة الذهب في أسانيد الحديث المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٣) خير نافع وابن حاطب رواهما القرطبي في التفسير ج ٤ ص ٣٩ ، ٤٠ .

المفردات: يقال: ﴿شهد﴾ الشيء وشاهده إذا حضره كما قال ﴿وما شهدنا مهلك أهله﴾^(١) وقال: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾^(٢). والشهادة بالشيء الإخبار به عن علم، إما بالمشاهدة الحسية، وإما بالمشاهدة المعنوية وهى الحجة والبرهان، و﴿أولوا العلم﴾ هم أهل البرهان القادرون على الإقناع، وهم يوجدون فى هذه الأمة وفى جميع الأمم السالفة ﴿بالقسط﴾ أى بالعدل فى الدين والشريعة، وفى الكون والطبيعة و﴿الدين﴾ له فى اللغة عدة معان: منها الجزاء، والطاعة والخضوع، ومجموعة التكاليف التى بها يدين العباد لله، وما يكلف به العباد يسمى شرعاً باعتبار وضعه وبيانه للناس، ودنيا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع، وملة باعتبار أنها كتبت و﴿الإسلام﴾ يأتى بمعنى الخضوع والاستسلام، وبمعنى الأداء تقول أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، وبمعنى الدخول فى السلم أى الصلح، والسلامة، وتسمية الدين الحق إسلاماً يناسب كل هذه المعانى.

و﴿حاجوك﴾: جادلوك و﴿أسلمت﴾: أى أخلصت و﴿الأميون﴾ مشركو العرب واحداهم أمى نسبوا إلى الأم لجهلهم كأنهم على الفطرة ﴿البلاغ﴾: أى التبليغ للناس.

روى الامام أحمد باسناده إلى الزبير بن العوام: قال: سمعت النبى ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (وأنا على ذلك من الشاهدين يارب)^(٣).

هذه أعظم شهادة فى الإسلام وإنما خص الملائكة وأولى العلم تشريفاً لهم وتكريماً، قال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبىون من قبل لا إله إلا الله)^(٤) وكل المخلوقات من العرش إلى الفرش لو سألتها من خالقك ل قالت بلسان الحال والمقال أنا مخلوقة للواحد الديان.

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنيئة كالحىال
فكل الكائنات غداً ستفى ويبقى وجه ربك ذى الجلال

وعجبت لمن أنكر الوجدانية، وهذا الكون باتساقه وانسجامه؛ ينطق بلسان اليقين: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾^(٥).

(١) من الآية: ٤٩/ من سورة النمل.

(٢) من الآية: ٨٥/ من سورة البقرة.

(٣) روى الإمام القرطبى عن الكلبي، قال: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أجبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان! فلما دخلا على النبى ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالوا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها أمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: «سلا». فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله. فأنزل الله تعالى نبىه ﷺ: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ. أهـ ٤١ ص ٤١.

(٤) متفق عليه.

(٥) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجي وإلى علاك عنا الجبين الساجد

قال غلب القطان : أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبا من الأعمش ؛ فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة ، فقام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ إن الدين عند الله الإسلام ﴿ ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لى عند الله وديعه ﴾ إن الدين عند الله الإسلام ﴿ قالها مرارا قلت : لقد سمع فيها شيئا ، فغدوت إليه فودعته ثم قلت يا أبا محمد إني سمعتك تردد هذه الآية قال : أو ما بلغك ما فيها قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة فأقمت سنة وكتب على بابه ذلك اليوم فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى بالعهد ادخلوا عبدى الجنة) (١) .

وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التي بين الله فيها صفات المتقين من الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار ، لأن هؤلاء الذين اتصفوا بتلك السجاياء الحميدة من أوائل الموحدين الشاهدين لله بأنه الواحد في ذاته ، فلا قسيم له ، الواحد في صفاته فلا شبيه له ، الواحد في أفعاله فلا شريك له ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخير ، وملك فقدر ، تنزه عن الشريك ذاته ، فهو الذى له الأمر كله ، و ﴿ له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٢) تقديست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل ، هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ (٣) : ﴿ له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ﴾ (٤) ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ قائما بالقسط ﴾ حال لازمة وصفة ثابتة لله جل شأنه فهو المهيمن على هذا الكون بالعدل فكل فعله مبنى على الحكمة ، والقسط فى حق الله هو العدل المطلق ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (٦) ثم قال سبحانه : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أى أن كلمة التوحيد هى العدل نفسه وأن الشرك هو الظلم عينه ، قال لقمان

(١) رواه القرطبي في تفسيره ج ٤ ص ٢٤ وقال : غالب القطان وثقة أحمد بن حنبل ابن معين وأبو حاتم ، ثم قال : حسبك أن خرج له البخارى ومسلم في كتابيهما : روى من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « من قرأ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو وملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ عند منامه خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة » وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنبا أو صنمان ، فلما نزلت هذه الآية أصبحت هذه الأصنام قد خرت ساجدة ... ٥١ .

(٢) من الآيتين ٧٠ ، ٨٨ من سورة القصص .

(٣) من الآية ٣ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٢ : من سورة الحديد .

(٥) الآية ٦ : من سورة الحديد .

(٦) الآية ٩٠ : من سورة النحل .

لابنه : ﴿ يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ^(٢) .
 ﴿ العزيز ﴾ : هو القاهر الغالب ، الذي لا يقهر ولا يغلب ، الحكيم : أى المنزه عن العيب ، المبرأ من
 الظلم ، الحكم العدل المقسط .

قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد
 وتحت لواء واحد ، هو الإسلام ، قال تعالى حكاية عن نوح يقول لقومه : ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر
 إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ ^(٣) وقال حكاية عن إبراهيم ويعقوب : ﴿ ووصى بها
 إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ * أم كنتم شهداء إذ
 حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
 إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴾ ^(٤) وقال سبحانه : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم
 وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد
 منهم ونحن له مسلمون ﴾ ^(٥) وقال حكاية عن يوسف : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ ^(٦) ، وقال
 حكاية عن موسى وقومه : ﴿ ويا قوم إن كنتم آمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ^(٧) وقال حكاية عن
 سليمان وملكة سبأ : ﴿ أن لا تعلوا علىّ وأتوني مسلمين ﴾ ^(٨) ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ رب إني ظلمت نفسى
 وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ^(٩) وقال مخاطباً عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بى
 وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ^(١٠) وقال عن النبيين : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم
 بها النبيون الذين أسلموا ﴾ ^(١١) وبشر أمة محمد ﷺ بأربع بشرى فى حجة الوداع : أولها ﴿ اليوم يش
 الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ ^(١٢) وثانيها : (اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ ^(١٣) وثالثتهما :
 (وأتممت عليكم نعمتى ﴾ ورابعها : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وإذا كان الله قد أكمل دينه فدين الله
 ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لا تنقص أبداً ، وإذا كان قد رضى لنا
 الإسلام ديناً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ وقد حسم القرآن الموقف حسماً لا يقبل جدلاً حيث قال
 تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ^(١٤) اللهم إنا نشهدك
 ونشهد ملائكتك وحمة عرشك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ونبيك
 ورسولك ، رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى
 وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً ولا ترغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة : « اللهم لك الحمد
 أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات

(٨) - الآية : ٣١ من سورة النمل .

(٩) من الآية : ٤٤ من سورة النمل .

(١٠) الآية : ١١١ من سورة المائدة .

(١١) من الآية : ٤٤ من سورة المائدة .

(١٢) من سورة الآية : ٣ من سورة المائدة .

(١٣) من الآية : ١٤ من سورة الجن .

(١٤) من الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .

(١) من الآية : ١٣ من سورة لقمان .

(٢) من الآية : ٢٥٤ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٧٣ من سورة يونس .

(٤) الآيتان : ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .

(٦) من الآية : ١٠١ من سورة يوسف .

(٧) من الآية : ٨٤ من سورة يونس .

والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق والنبون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ولك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي ؛ لا إله إلا أنت »^(١) « نامت العيون وأنت الحي القيوم لا تأخذك سنة ولا نوم أغلقت الملوك أبوابها وبابك لا يغلق أستحي أن أسألك وأنا أنا ، ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت ، إن كانت ذنوبي لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية »^(٢) .

يامن يجيب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان

ما بالكم يا قوم في غفلة عن الله ، والله يقول في كتابه : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم ﴿^(٣)﴾ ويقول : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾ * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾^(٤) . ألم تقرأوا قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾^(٥) . لما كانت الساعة متحققة الوقوع عبر عن وقوعها بالفعل الماضي (أتى) كأنها قد وقعت وعبر عنها بالاقتراب فقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر)^(٦) .

ياأخا الاسلام :

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

قوله تعالى : ﴿ وما يختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ هذا إخبار من الله جل جلاله عن الدافع النفسى الذى دفع أهل الكتاب إلى الاختلاف على أنبيائهم والخروج على شرائعهم وشعائهم ، فقد تقرر أن الدين عند الله الإسلام ، فما السر في اختلاف هؤلاء ؟ ! إن السر هو البغى والحسد الذى وقع بين رؤسائهم وملوكهم وأحبارهم ورهبانهم ، فقد بغى بعضهم على بعض ، طلبا للرئاسة ، ولما هاجت عقارب البغضاء في صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد في نفوسهم ؛ تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، واختلفوا في طبيعة المسيح : أهو الله أم هو ابن الله ؟ هل الإله شركة مساهمة : الأب والابن والروح القدس ؟ ! وانقسموا إلى يعقوبيين وملكانيين وشمعونيين ومارونيين : قال تعالى : ﴿ إن الذين

(١) من أدعية الرسول ﷺ إذا قام الليل ذكرها التوى في الأذكاء والكاندهلوى في حياة الصحابة . (٤) الآية الأولى من سورة النحل .

(٢) الآيات الأولى من سورة الأنبياء . (٥) الآية الأولى من سورة القمر .

(٣) الآيات من : ٩٧ - ١٠٠ من سورة الأعراف .

فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون ﴿١﴾ ثم وجه حبيبه ومصطفاه إلى أن يعلنها في سمع الزمان صريحة مدوية : ﴿ قل إنني هداة ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيميا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ﴿٢﴾ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿٣﴾ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿٤﴾ . لقد بلغ من اختلافهم المبني على الحسد والحقد أنهم كانوا يبشرون ببعثة النبي محمد ﷺ ؛ فلما جاء عربياً قرشياً ، قالوا كنا نطمع أن يكون منا من بنى إسرائيل ، فناصبوه العداة وتآمروا مع المشركين على حربته : قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ * بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ هذا حكم من الله على الذين جحدوا آياته وأنكروا آلاءه وكفروا بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة التي قامت في الآفاق والأنفس ، وسواء أكانت الآيات هنا آيات تكوينية أم تشريعية ﴿٥﴾ ، فإنها دالة على وحدانية الله وقدرته ، فمن كفر بها فسوف يحاسب حساباً عسيراً ، وسوف يدعو ثبورا ﴿٦﴾ ويصلى سعيراً ، فإن الله سريع الحساب ، وإن الله حكم حكماً عادلاً إذ يقول : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) ﴿٧﴾ .

هؤلاء الذين اختلفوا على شرائع أنبيائهم من أهل الكتاب ، وفرقوا دينهم وكانوا شيعاً ؛ إن جاءوك يجادلوك فماذا أنت قائل لهم ؟ لقن الله تعالى نبيه ماذا يقول لهم : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ أى إن جادلوك فلا تجادلهم فإن جدالهم مبنى على العناد والكبر ، ولكن قل لهم : ﴿ أسلمت وجهى لله ﴾ أى أخلصت إسلامى وانقيادى لله وحده ، ثم ماذا ؟ قال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ﴾ أى وجه هذا الأمر الذى جاء فى صيغة الاستفهام ﴿ أأسلمتم ﴾ أى قل هؤلاء الذين اختلفوا على الأنبياء بغياً وحسداً ، وقل للأميين من مشركى العرب : قل لهم أسلموا ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ إلى صراط الله المستقيم ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿٨﴾ . ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع

(٦) الثبور: الويل والهلاك بعد الندم على ما تقدم من حابط العمل .

(٧) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٨) من الآيتين : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(١) الآية : ١٥٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآيات : ٨٩ - ٩١ من سورة البقرة .

(٥) الآيات التكوينية ما كان من عجب صنع الله فى خلق السموات والأرض وما فيهن . والآيات التشريعية ما كان مما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات وحدود لتنظيم معاشهم والاستعداد لمعادهم .

بيننا وإليه المصير * والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب لهم حاجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴿١﴾ . ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ ﴿٣﴾ .

إن الله تعالى يريد بهذه الآيات أن يرفع المشقة عن نبيه ﷺ ويدفع الأسى الذي كان يعانیه من شدة حرصه على إيمان هؤلاء فيقول: ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ﴿٤﴾ ويقول : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ * إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين * وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعملون * ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿٥﴾ .

ويقول تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ * إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أى مطلع على خفايا النفوس عليم بذات الصدور .

يا من يرى مد البعوض جناحه	في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها	والخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها	في قاع بحر زاهر متجندل

﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ ﴿٧﴾

الله يدرى كل ما تضر	يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع	خداع من يطوى ومن ينشر

جزاء عادل

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ

(٥) الآيات : ٣٦ - ٤٠ من سورة النحل .

(٦) الآيات : ٣٣ - ٣٦ من سورة الأنعام .

(٧) الآية : ٧ من سورة طه .

(١) الأيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة الشورى .

(٢) الآية : ٩٩ من سورة المائدة .

(٣) من الآية : ٨ من سورة فاطر .

(٤) من الآية : ٢٧٢ من سورة البقرة .

بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١٢﴾

المفردات : المرادب ﴿ الذين يكفرون ﴾ هم اليهود خاصة وقوله ﴿ بغير حق ﴾ أى بغير شبهة لديهم
(حبط العمل) : بطل . و (البشارة والبشرى) : الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه ، واستعمالها فى الشر
جاء على طريق التهكم والسخرية .

ما جزاء هؤلاء القوم الذين قتلوا أنبياء الله ، وقتلوا الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر من
المصلحين ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ (١) . . قتلوهم كبراً وبطراً بغير
حق ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

لقد وردت عن الصادق المعصوم عليه السلام أحاديث حول قتلهم الأنبياء واستهتارهم ، هذه الأحاديث تنفطر
القلوب لهولها ، وتنخلع الأفتدة أسى ولوعة ، وتسيل الكبد لها مرارة :

عن عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال
(رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر) . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله
ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرهم بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ثم قال رسول
الله ﷺ يا أبا عبيدة : قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون
رجلاً من بنى إسرائيل فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك
اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل) . رواه ابن جرير . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قتل
بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره « لقد حكم الله على هؤلاء بأحكام قال
فيها : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون
النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٢) وقال سبحانه : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا
بجبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات
الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٣) .

جنايات يندى لها جبين البشرية حياةً وخجلاً : كفر بآيات الله وقتل لأشرف الخلق ؛ لأنبياء الله
والأميرين بالمعروف ؛ وعصيان لأوامر الله ، واعتداء على محارم الله وإساءة أدب مع الله تعالى . . . ألم
يقولوا : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ (٤) . ألم يقولوا ؟ : ﴿ يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل
يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ (٥) . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما

(٤) من الآية : ١٨١ من سورة آل عمران

(٥) من الآية : ٦٤ من سورة المائدة .

(١) من الآية : ٣٩ من سورة الأحزاب .

(٢) من الآية : ٦١ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ١١٢ من سورة آل عمران .

قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿١﴾ .

واسمع معي إلى تلك الصحيفة المليئة بالجنايات التي اقترفوها ، قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب ألا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ (٢) .

فكانوا جديرين بأن يبشرهم الله بعذاب أليم ويحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من دون الله .

الإعراض عن حكم الله

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿ ألم تر ﴾ : استفهام لتعجب النبي ﷺ من حالهم . ﴿ الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ : هم اليهود و (النصيب) : الحظ و ﴿ الكتاب ﴾ : التوراة ﴿ ليحكم بينهم ﴾ : أى ليفصل بين اليهود والداعي لهم وهو النبي ﷺ و (التولى) : الإعراض بالبدن و (الإعراض) يكون بالقلب و (الافتراء) الكذب و (اليوم) : هو يوم الحساب والجزاء . ﴿ ما كسبت ﴾ : أى ما عملت من خير أو شر .

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « دخل رسول الله ﷺ بين المدراس (مدرسة اليهود لدراسة التوراة) على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت

(١) الآيتان : ١٨١ / ، ١٨٢ من سورة آل عمران

(٢) الآيات : ١٥٣ / - ١٦١ من سورة النساء .

يا محمد ؟ قال : (على ملة إبراهيم ودينه) قالوا : فإن إبراهيم كان يهودياً ، فقال لهما رسول الله ﷺ : (فاهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم) فأنزل الله الآية .

وهذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى فيها مدى ما عليه اليهود من إعراض عن الحق ونكوص عن الدعوة إلى الله ، هؤلاء الذين أوتوا جزءاً من التوراة ؛ إذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليحكموه فيها شجر بينهم ، كانوا إذا لم يكن الحكم على هواهم تولوا ، وانصرفوا بالأبدان وأعرضوا بالقلوب ، وقد حذر الله تعالى نبيه ﷺ من أفعالهم فقال : ﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ (١) .

هؤلاء القوم كانت لهم جراحة على الحق ، وكانوا مصابين بالصلف والكبرياء بعدما امتلأت نفوسهم وقلوبهم خداعاً وغروراً ، أعرضوا عن حكم الله وعن الرضا بما حكم ، وأعرضوا عن قبول الحق لأنهم قالوا : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ (٢) وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل والتي قال الله فيها : ﴿ وإذ أاعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وغرهم في دينهم ماكانوا يفترون ﴾ أى إن هؤلاء القوم بلغ من ضلالهم : أن الأمر الذى كانوا يفترونه في دينهم من قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (٤) ومن زعمهم أن لهم بالأنبياء صلة قرابة ونسب . كل ذلك غرهم وهذا محض افتراء ، فإن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ؛ ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لكل عاص ؛ ولو كان شريفاً قرشياً . قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ (٥) فهؤلاء القوم الذين غرهم افتراؤهم في دينهم : ﴿ وقالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ (٦) إنهم بافترائهم في الدين يكونون قد ضربوا أسوأ الأمثال في الانحطاط الخلقى ويكونون قد تبوءوا مستنقاعاً عفناً من الرذائل ، ولذا قال تعالى بعد ذلك بأسلوب التعجب ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ إنه يوم القيامة يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حمياً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبه وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى ﴾ (٧) .

إن الله تعالى خاطب هؤلاء القوم الذين اغتروا بافترائهم في دين الله ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، فقال لهم مولانا : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ (٨) .

(٥) الآيات : ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٦) من الآية : ٧٥ من سورة آل عمران .

(٧) الآيات : ١٠ - ١٥ من سورة المعارج .

(٨) الآيتان : ٤٧ ، ٤٨ من سورة البقرة .

(١) من الآيتين : ٤١ ، ٤٢ من سورة المائدة .

(٢) من الآية : ١٠ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٨٠ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ١٨ من سورة المائدة .

نعم ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ﴾ * يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿^(١)﴾ قال الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه . . إلى ریحانته فاطمة : (يا فاطمة بنت محمد : اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا عباس يا عماء : اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة محمد : اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً) ^(٢) .

ليس هناك في دين الله ما يسمى بشعب الله المختار ، فالناس جميعاً عبيد الله وهو ربهم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، وليس هناك ما يقال نحن أبناء الله وأحباؤه ، بل ميزان العدالة عند الله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ^(٣) وليس في منطق العدالة الإلهية ما يقال : إن لنا نسباً بالأنبياء ، بل إن هناك المنطق القرآني العادل : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى * أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وإن إلى ربك المنتهى ﴾ ^(٤) .

إن الولد يوم القيامة يلقي والده ويقول له يا أبت لقد كنت بك براً وإليك محسناً وعليك مشفقاً فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول والده : يا بني ليتني أستطيع ذلك إنني أشكوكما منه تشكو !! صدقت يا ربنا ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ^(٥) . ﴿ لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ ^(٦) . (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين) ^(٧) وتلقى الأم ولدها يوم القيامة فتقول يا بني : لقد كان بطني لك وعاء وثدي لك سقاء وحجري لك غطاء ؛ فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ . فيقول : يا أماء ليتني أستطيع ذلك إنني أشكوكما منه تشكين . . هذا هو منطق العدالة الإلهية : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ ^(٨) .

الله مالك الملك

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الملك ﴾ : السلطة والتصرف في الأمر ﴿ بيدك الخير ﴾ : الخير كله تتصرف فيه أنت وحدك (الولوج) : الدخول (الإيلاج) : الإدخال .

(٥) من الآية : ٢٥ من سورة آل عمران .

(٦) من الآية : ١٧ من سورة غافر .

(٧) من الآية : ٤٧ من سورة الانبياء .

(٨) من الآية : ١٨ من سورة فاطر .

(١) الايات : ٣٤ - ٣٧ من سورة عبس .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٤) الايات : ٣٦ - ٤٢ من سورة النجم .

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله الآية^(١) .

وهاتان الآيتان ناطقتان بالجلال والعظمة لملك الملك ، فبعدما أخبرنا سبحانه بأنه سيجمع الناس ليوم لا ريب فيه ، أخبر هنا بأنه الملك المتصرف بمشيئته وحكمه فهو يؤتى الملك من يشاء ، كما آتاه لداود وسليمان ، وينزع الملك ممن يشاء ، كما نزع من القياصرة والجبابرة والأباطرة ، وغيرهم من عاد وثمود وفرعون والنمرود ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحبى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾^(٢) ويقول الله تعالى عن ملك مصر فرعون ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾^(٣) قال تعالى بعد ذلك فى سورة الدخان ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾^(٤) فاللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء ، ومن الفقر بعد الغنى ، ومن الضلالة بعد الهداية ، نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين .

وكما أن مولانا جلّت قدرته ، مالك الملك وملك الملوك ، يؤتى الملك وينزعه ، فهو الذى يعز من يشاء بالطاعة ، ويذل من يشاء بالمعصية .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فى من كان لله عاصياً

لقد أعز الله الحبيب محمداً بالرسالة، وأذل عبد الله بن أبى بن سلول بالنفاق ولما قال ابن أبى : لئن رجعت إلى المدينة لأخرجن محمداً منها ذليلاً وأنا العزيز !! قال الله تعالى : ﴿ والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾^(٥) .

فليعلم جبابرة الأرض أن دوام الحال من المحال ، وأن العدل أساس الملك ، وأن دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وأن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، وأن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا جلّت أوجلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت

(١) ورواه القرطبى عنهما ج - ٤ ص ٥ ، وإن ذكر روايات أخرى كاسباب للنزول ، منها دفع باطل نصارى نجران إذ قالوا : إن عيسى هو الله

وروى عن معاذ بن جبل تعليم النبى ﷺ قراءة هاتين الآيتين عند الدين فإن سبحانه كفى بالتوسعة لسداد الدين وقضائه وخرج أبو نعيم كما روى مثله عطاء الخراسانى عن معاذ .

(٢) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٤٠ من سورة القصص .

(٤) الآيات : من ٢٥ - ٢٨ من سورة الدخان ، أما : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ﴾ كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ﴿

فهى الآيات : ٥٧ - ٥٩ من سورة الشعراء .

(٥) من الآية : ٨ من سورة المنافقون .

جفت ، وكم من قبور تبني وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا .. مات (١) .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخصاً وأشكالاً تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهيمن باق

قوله تعالى : ﴿ بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ أى أنت المتصرف ، فالخير كله بيدك ، لا يملكه غيرك ، وأنت الذى يحار الفهم فى قدرتك لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، ومن مظاهر تلك القدرة الباهرة : أنك ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ ، من غيرك يستطيع ذلك ؟ أنت الذى تدخل جزءاً من الليل فى النهار فيقصر الليل ويطول النهار ، وتدخل جزءاً من النهار فى الليل فيطول الليل ويقصر النهار (٢) كرة معلقة فى فضاء رهيب ، تدور حول نفسها فيكون الليل والنهار ، وتدور حول الشمس مرة كل عام فتكون الفصول الأربعة ، من غيرك يستطيع هذا يا من تحديد الجبال والطواغيت ، وقلت : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿ (٣) .

سل الواحة الخضراء والماء جارياً	وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى	سل الليل والإصباح والطير شاديا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمداً	فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت	أفى كونكم من يمسك الريح ناهياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم	سوى الله يجريه كما شاء راويا

ومن مظاهر القدرة الباهرة أنه سبحانه : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهذا الإخراج . قد يكون فى المعنويات مثل إخراج المؤمن من صلب الكافر ، وإخراج الكافر من صلب المؤمن ، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل يقول : « سبحانه الله يخرج الحى من الميت » وقد يكون ذلك الإخراج فى المحسوسات ، كإخراج الخلايا الحية من الغذاء الميت وإخراج الإفرازات الميتة من الأجسام الحية .

ومن مظاهر مشيئتك الحكيمة أنك يا مولانا ترزق من تشاء بغير حساب ، أى بدون تعب ومشقة كما رزق الأمة الإسلامية بالبتروىل يجرى فى عروق الأرض .

(١) يعرض الشيخ هنا عجائب الدنيا التى لا يدوم حال منها لصاحبه فإن الدنيا إذا حلت فى عين صاحبها آذنت بالوجل كناية عن الخوض فى أحوال المعاصى ، وإذا جلت من الجلوة وهو الشهرة آذنت بالوجل وهو الخوف ومداومة الاحداث ، وإذا كست صاحبها مظهرها براقا أو كسته بالخفية والخسران بعد حين ، وإذا أُنعت أى ازدهر حالها ، آذنت بالنعى وهو انقضاء النعمة والازدهار .

والقبور تبني ولا يتوب الناس وكم من مريض عدنا فلم بالموعظة وخوف المرض والموت ، واعلامهم فإن العلامهم نذير بالموت .
(٢) كما يفهم من الآية الحقيقة الكونية التى تتمثل فى قدوم الليل على النهار وقدوم النهار على الليل فلا ينسلخ أحدهما فجأة ولا يدخل فجأة وهو المعنى اللغوى للإلاج وهو رأى ابن مسعود ، وما ذكر الشيخ هو رأى ابن عباس وبجاهد والحسن وقناة والسدى .

(٣) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

هذا وقد ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه :

- ١ - بمعنى التعب كما في هذه الآية .
- ٢ - بمعنى العدد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).
- ٣ - بمعنى المطالبة كما في قوله : ﴿ فَاْمَنْنَ أَوْ أَمْسَكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢).

ولاية الكافرين

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلِمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ يُحْذِرُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

المفردات : (الأولياء) واحدهم ولي وهو النصير . ﴿ تقاة ﴾ أى اتقاء وخوفا ﴿ ويحذركم ﴾ : أى يخوفكم و ﴿ أمدا ﴾ : المدة لها حد محدود . ﴿ محضراً ﴾ : أى حاضراً لديها .

روى أرباب السير أن بعض الذين كانوا يدخلون في الإسلام يغتروا بعزة الكافرين وقوتهم فيوالونهم ويركنون إليهم وليس هذا بالمستغرب بل هو أمر طبيعي في البشر .

وروى عن ابن عباس أنه قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد من اليهود ؛ يلزمون نفرا من الأنصار يفتنونهم عن دينهم ؛ فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود . فأبى أولئك النفر إلا ملازمتهم . فأنزل الله الآية . وهذا نهى من الله تعالى موجه إلى الجماعة المؤمنة ، وهو إرشاد وتوجيه في نفس الوقت للجماعة المؤمنة أن تتخذ المؤمنين أولياء ونصراء ، وألا تتخذ الكافرين أصفياء ونصراء من دون المؤمنين ، فمن اتخذهم أولياء وأصفياء من دون المؤمنين ، فليس عمله هذا من طاعة الله في شيء ، إنما هو بعيد كل البعد إلا أن يكون ذلك تقية لدفع ضرر أو جلب منفعة للأمة .

قال الشيخ المراغى رحمه الله في تفسيره لهذه الآية : « أى لا يصطفِ المؤمنون الكافرين فيكاشفونهم

(١) من الآية : ١٠ من سورة الزمر .

(٢) من الآية : ٣٩ من سورة ص .

بالأسرار الخاصة بالشئون الدينية ، ويقدموا مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، إذ في هذا تفضيل لهم عليهم ، وإعانة للكفر على الإيمان . وخلاصة هذا نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين لقراءة أو صداقة جاهلية ، أو جوار أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة ؛ بل ينبغي أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب ، ومن ثم تكون موالاة المؤمنين أجدى لهم في دينهم من موالاة الكافرين . فإن كانت الموالاة والمخالفة لمصلحة المسلمين فلا مانع منها ، فقد حالف النبي ﷺ خزاعة وهم على شركهم ، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته في أمور الدنيا ، ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ أى ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين ، فليس من ولاية الله في شيء أى فليس بمطيع له ولا ناصر لدينه ، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة ، ويكون من الكافرين كما جاء في الآية الأخرى . ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ^(١) إلا أن تتقوا منهم تقاه ﴾ أى إن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم في كل حال ؛ إلا في حال الخوف من شيء تتقونه منهم ، فلکم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يتقى ذلك الشيء ، إذ القاعدة الشرعية « أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح » وإن جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين ، وإذا فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة ، لفائدة تعود إلى الأولى إما بدفع ضرر أو جلب منفعة ، وليس لها أن تواليها في شيء يضر المسلمين ، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف بل هي جائزة في كل وقت .

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية ؛ بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق ، لأجل توقي ضرر من الأعداء يعود إلى النفس أو العرض أو المال ، فمن نطق بكلمة الكفر مكرها وقاية لنفسه من الهلاك ، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافرا ، بل يعذر كما فعل عمار بن ياسر ، حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرها ، وقلبه ملىء بالإيمان وفيه نزلت الآية : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ ^(١) وكما عذر الصحابي الذي قال له مسيلمة : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فتركه وقتل رفيقه الذى سألته هذا السؤال فقال إنى أصم « ثلاثاً » فقدمه وقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعه عليه) ، وهى من الرخص لأجل الضرورات العارضة لا من أصول الدين المتبعة دائماً ، ومن ثم وجب على المسلم الهجرة من المكان الذى يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية ، ومن كمال الإيمان ألا يخاف فى الله لومة لائم كما قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وتخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ فلا تحشوا الناس واخشون ﴾ ^(٣) .

(١) الآية : ١٠٦ من سورة النحل .

(٢) من الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .

وكان النبي ﷺ وأصحابه يتحملون الأذى في سبيل دعوة الدين ويصبرون عليه .

ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة ، ولين الكلام لهم والتبسم في وجوههم ، وبذل المال لهم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم ، ولا يعد هذا من الموالاة المنهى عنها ، بل هو مشروع ؛ فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ : (ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة) ، وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده . . فقال رسول الله ﷺ : (بش ابن العشيرة أو أخو العشيرة) ثم أذن له فالان له القول ، فلما خرج ، قلت يا رسول الله قلت ما قلت ، ثم ألت له القول ! ؟ فقال يا عائشة : « إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه » رواه البخاري ، وروى قوله ﷺ (إنا لنكثير) (نبتسم) في وجوه قوم ، وإن قلوبنا لتقلبهم) (تبغضهم) . ويحذركم الله نفسه ﴿ أى عقاب نفسه ، وفائدة ذكر ﴿ نفسه ﴾ الإيماء إلى أن الوعيد صادر منه تعالى ، وهو قادر على إنفاذه ولا يعجزه شيء عنه . وفي ذلك تهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه ؛ لأن شدة العقاب بحسب قوة المعاقب وقدرته .

﴿ وإلى الله المصير ﴾ أى وإلى الله مرجع الخلق وجزاؤهم فيجزى كلا بما عمل : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى إنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم إذ توالون الكافرين أو توادونهم أو تتقون منهم ما تتقون ، فإن كان ذلك يميل بكم إلى الكفر جازاكم عليه ، وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ، ولم يؤخذكم على عمل لا جريمة فيه على الدين ولا على أهله ، وهو إنما يجازيكم بحسب علمه المحيط بما فى السموات والأرض ، لأنه الخالق لها . كما قال : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ ^(١) . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ، فهو يقدر على عقوبتكم فلا تجسروا على عصيانه وموالاة أعدائه ، إذ ما من معصية خفية كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها قادر على عقاب فاعلها . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ أى احذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير حاضراً لديها ، فيكون ذلك غبطة وسروراً لها ، وتنعم بما أحسنت ، وتبتئس المسيئة وتغتصم بما أساءت ، وتود أن ما عملت من سوء كان بعيداً عنها لم تره حتى لا تؤاخذ بجريته ، ومعنى كونه محضراً أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لها .

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى احذروا من سخط الله ، بترجيح جانب الخير وعمله على ما يزينه لكم الشيطان من عمل سوء ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ ^(٢) .

﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ . قال الحسن البصرى : ومن رأفته أن حذرهم نفسه وعرفهم كمال علمه وقدرته ، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة دعاهم ذلك إلى طلب رضا واجتناب سخطه ، ومن رأفته أيضاً أن جعل الفطرة الإنسانية ميالة بطبعها إلى الخير ، مبغضة لما يعرض لها من الشر ، وأن جعل أثر الشرفى النفس قابلاً للمحبة بالتوبة والعمل الصالح .

(١) من الآية : ١٤ من سورة الملك .

(٢) جزء من الآية : ٣١ من سورة النور .

محبة الله في اتباع رسوله

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

المفردات : (المحبة) : ميل النفس إلى الشيء لكمال أدرسته فيه ، فيدعوها ذلك إلى التقرب إليه ﴿ يغفر لكم ﴾ . أى يتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة ﴿ فإن تولوا ﴾ : أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك .

روى أن هذه الآية نزلت حين دعا رسول الله ﷺ : كعب بن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان فقالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (١) فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إني رسول الله إليكم أدعوكم إليه ، فإن كنتم تحبونه فاتبعوني وامثلوا أمرى يحبكم الله ويرضى عنكم .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ... ﴾ قال عبد الله بن أبي ابن سلول : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى فنزل قوله : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ أى قل لهم : أطيعوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وأطيعوا رسوله باتباع سنته والاهتداء بهديه . وفى هذا إرشاد إلى أن الله إنما أوجب عليكم متابعتة لأنه رسوله ، لا كما يقول النصارى فى عيسى .

وقد أخبر النبى ﷺ أنه : ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ﴾ (٢) وقد قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله ، فقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ (٣) وقال فى آيات أخرى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ﴾ خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا * يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ (٤) وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ (٥) وهنا لفتة طيبة فى قوله تعالى : ﴿ إذا دعاكم ﴾ ولم يقل إذا دَعَاكُمْ أى الله ورسوله بغير المثنى ، لأن دعوة الرسول هى من دعوة الله تعالى ، وقال تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ (٦) ولم يقل أحق أن يرضوها ، لأن إرضاء الرسول من إرضاء الله ، وقال جل جلاله : ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ (٧) . فمن تولى عن هذا وأعرض ، وأصر على الباطل ، واستكبر عن الحق وأعرض عن ذكر ربه ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ الجاحدين للإيمان بالله والطاعة لرسوله .

(٥) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٦) من الآية : ٦٢ من سورة التوبة .

(٧) الأيتان : ٨ ، ٩ من سورة الفتح .

(١) من آية ١٨ من سورة المائدة .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) من الآية : ٨٠ من سورة النساء .

(٤) الآيات : ٦٤ - ٦٦ من سورة الأحزاب .

إصطفاء الله

* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ إِنِّي لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ
يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

المفردات : (الاصطفاء) أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء و (الذرية) في أصل اللغة الصغار
الأولاد ، ثم استعملت عرفا في الصغار والكبار للواحد ولأكثر من الواحد ، و (النذر) : ما يوجهه الإنسان على نفسه
(المحرر) : المخصص للعبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر ، و (التقبل) : أخذ الشيء على وجه الرضا
والقبول : ﴿ أعيذها بك ﴾ : أى أمنعها وأجيرها بحفظك ، وأصل العوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به ،
يقال : عاذ بفلان : إذا استجار به و ﴿ الرجيم ﴾ : أى المرجوم المطرود من الخير و ﴿ مريم ﴾ : بالعبرية خادم
الرب و ﴿ تقبل الشيء ﴾ : وقبله أى رضيه لنفسه ﴿ وأنبتها ﴾ : أى رباها بما يصلح أحوالها ، ﴿ وكفلها
زكريا ﴾ : أى وجعل زكريا كافلا لها وزكريا من ولد سليمان بن داود عليها السلام و ﴿ المحراب ﴾ هنا هو
المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ، وهو مقصورة في مقدمة المعبد ، لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة ،
يكون من فيه محجوبا عن من في المعبد^(١) ﴿ أنى لك هذا ﴾ : أى من أين لك هذا والأيام أيام قحط وجذب
﴿ بغير حساب ﴾ : بغير عد ولا إحصاء لكثرتة .

بعدما بين الله تعالى أن محبته مبنية على طاعة رسوله واتباعه ، ذكر هنا أنه ﴿ اصطفى ﴾ هذه الكوكبة
الطاهرة ﴿ آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران ﴾ فإيمان أنكرتم اصطفاء الله لخاتم الأنبياء حسداً وبغيا من
عند أنفسكم ، يا من أنكرتم ذلك على رسول الله ﷺ لماذا أقررتم باصطفاء الله لأنبياء سابقين ؟ ! قال
تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ * ووهبنا له
إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون

(١) والأصل اللغوى فى المحراب صدر المكان أو على مكان فيه ، أو خلوة العبادة .

وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهdy به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين * ﴿١﴾ .

إن اصطفاء الله تعالى لآدم من وجوه كثيرة : فقد خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأدخله جنته ، وأهبطه منها لحكمة يعلمها سبحانه ، وتاب عليه وشرفه بالنبوة ، كما اصطفى نوحا بالرسالة وبداية الخلق ، وجعله أبا للبشرية بعد آدم ، وفتح به قلوبا غلغا وأرشد به الخائرين ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، كما اصطفى آل ابراهيم بجعل النبوة فيهم ، وآل عمران كذلك . . قوله تعالى : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أى إن هؤلاء الأنبياء سلائل بعضها يلد بعضاً ، أو يكون المقصود من هذا النص الكريم أنهم متمثلون فى الأخلاق العلية والاصطفاء الربانى والرسالات السامية ، فهم نور على نور ، وأصولهم طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، قال عمران من آل ابراهيم ، وآل ابراهيم من نوح ، ونوح من آدم . ﴿ والله سميع عليم ﴾ فقد سمع دعاء امرأة عمران واسمها « حنا » وعمران هذا غير عمران الذى ورد ذكره فى الآية السابقة فى قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران ﴾ فعمران فى تلك الآية هو أبو موسى وهارون ، وعمران فى الآية التى بين أيدينا الآن هو أبو مريم وجد عيسى لأمه ، لقد نذرت أم مريم : إن رزقها الله بمولود لتجعله خالصا متفرغا لخدمة بيت المقدس . وسمع الله دعاءها لأنه السميع لأقوال عباده ، ﴿ يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ ورب العزة يقول : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ وهذا تعبير يقصد به تشريف ما وضعت حيث أسند علم الله إليه وهو العليم بكل شىء ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ ﴿٣﴾ . وكما فى قوله جل جلاله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ ﴿٤﴾ . . وقوله تعالى : ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أى ليست هذه الحقيقة كتلك الحقيقة ، فقد يتحمل الذكر من المشاق واحتمال الكد ما لا تستطيعه الأنثى ، خاصة وأن المقام مقام خدمة وعمل فى بيت المقدس قالت : ﴿ وإنى سميتها مريم ﴾ أى العبادة الخادمة لبيتك ، ولما رزق النبى ﷺ بإبراهيم ، قال : « لقد رزقت الليلة بمولود سميت إبراهيم » ، وفيه دليل على جواز تسمية المولود عندما يولد ، قالت امرأة عمران : ﴿ وإنى أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ وكان لقولها هذا بركة من عند الله ورعاية ، فقد لجأت إلى الله واستجارت به ليحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم واستجاب الله تعالى : فحفظ مريم وابنها من الشيطان : روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (كل بنى آدم ينخسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها) ﴿٥﴾ .

(٣) من الآية : ٢٧٠ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٢٦ من سورة الكهف .

(١) الآيات : ٨٣ - ٩٠ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ٤ من سورة الأنبياء .

(٥) لفظ مسلم هكذا : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل إلا ابن مريم وأمّه ، ثم قال أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم : ﴿ وإنى أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾

فقبل الله مريم لخدمة بيته ﴿ بقبول حسن وأنتها ﴾ ورباها ﴿ نباتا حسنا ﴾ وضمها إلى زكريا فكفلها بعناية ورعاية ، وقد أجرى الله الخير على يديها ، ففي أيام القحط والجذب ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ﴾ وهو الذي يسوقه الله إليها من مأكّل ومشرب ، فيسألها زكريا سؤال تعجب ﴿ يا مريم أنى لك هذا ﴾ أى من أين لك هذا فتجيبه بلسان اليقين ومنطق الحق المين ﴿ هو من عند الله ﴾ ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ (١) . ثم تضيف مريم قائلة : ﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فالمشيئة هنا مبنية على علم وحكمة و﴿ بغير حساب ﴾ أى بغير تعب ولا كد .

مع زكريا ويحيى

هَنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَآذْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

المفردات:

﴿ الدرية ﴾ : الولد وتقع على الواحد وأكثر و (الطيب) : ما تستطاب أفعاله وأخلاقه ﴿ سميع الدعاء ﴾ أى مجيبه كما يقال : سمع الله لمن حمده إذ من لم يجب فكأنه لم يسمع . و﴿ كلمة الله ﴾ عيسى عليه السلام و(السيد) : الرئيس الذى يسود قومه (الحصور) من الحصر (٢) وهو الحبس أى يحبس نفسه ويمنعها مما ينافى الفضل والكمال . ﴿ من الصالحين ﴾ : أى من أصلاهم والصلاح صفة تجمع الخير كله ، ﴿ أنى يكون لى ﴾ أى كيف يحصل لى . ﴿ بلغنى الكبير ﴾ : أى أدركنى كبر السن وأثرى ، ﴿ عاقر ﴾ : أى عقيم لاتلد . ﴿ آية ﴾ : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل إذا حدث لأتلقى النعمة بالشكر . ﴿ ألا تكلم الناس ﴾ أى لاتستطيع الكلام . و(الرمز) : أى الإشارة بيد أو رأس أو غيرها ، وسمى الرمز كلاما لأنه يفيد ما يفيد الكلام ، ويدل على ما دل عليه ، و﴿ العشى ﴾ : البوقت من الزوال إلى الغروب . و﴿ الإبكار ﴾ : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

(١) الآية : ٣ من سورة فاطر .

(٢) والحصور الذى لا يأتى النساء كأنه ممنوع يكون فى الرجال : عن ابن مسعود وغيره وعن ابن عباس وابن جبر وقتاده وعطاء وغيرهم . الذى يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة ، واستحسن القرطبي الرأى الثانى لما فيه من مدح وثناء على يحيى : الجامع لأحكام القرآن : ج ٤ ص ٧٨ .

لما رأى زكريا ما رأى من صلاح مريم وتقواها ، والرزق الذى تكرم الله تعالى به عليها فى هذا المكان المبارك ، ﴿ دعا زكريا ربه ﴾ : وكانت امرأته عاقرا . وقد كان طاعنا فى السن . قال تعالى فى سورة مريم : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئا ولم أكن بدعائك رب شقيا *^(١) وفى سورة آل عمران قال تعالى : ﴿ هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ .

فتأمل معي كيف وصف الذرية التى طلبها بالطيبة ، وفى سورة مريم قال : ﴿ واجعله رب رضيا ﴾^(٢) إذ إن لم يكن طيبا رضيا كان وبالا على أهله . كان نبي الله داود يدعو الله فيقول : « أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة تعينني على أمر ديني ودنياي ، وأعوذ بك من مال يكون وبالا على ، ويستمتع به غيري ، ومن ولد يكون على سيذا ، ومن جار سوء ، ومن زوجة تشينني قبل المشيب » .

لقد وصف زكريا ابنه بصفتين ، وأعطاه الله ولدا جمع فيه صفات الكمال ، فقد كان نبيا سماه الله يحيى ، لما فى ذلك الاسم من روح التفاؤل بأنه سيحيا ، ووصفه بأنه سيكون مصدقا بكلمة من الله ، والمقصود به المسيح ابن مريم ، الذى خلقه الله تعالى بكلمته ﴿ كن فيكون ﴾ . كما وصف الله يحيى بأنه سيكون سيد قومه ، ذا شرف ونباهة ذكر ، وهو أيضا من الصالحين ، أى هو صالح ومن ذرية قوم صالحين ، كما سبق . قال تعالى : ﴿ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ قال جل شأنه : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ﴾ فتأمل معي الحال التى كان عليها حين نادته الملائكة ، كان قائما يصلى ! إنها حالة من أشرف الحالات ! لم يكن لاهيا ولا ساهيا ولا غافلا ، لذا كان جديرا بأن تناديه ملائكة السماء : فبأى شئ أخبروه : ﴿ أن الله يبشرك بيحيى ﴾ . الله هو الذى يبشر ! فما أشرف هذه البشرى ، إنها من الله القادر المقتدر مالك الملك وملك الملوك ، ويبشر بمولود هو الذى سماه ولم يُسم بذلك الاسم أحد قبله ، قال تعالى : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾^(٣) . ما أجمل هذه البشرى . . المبشر بها هو الله ، وهى بشرى بمولد غلام لأبوين ؛ الأب قد بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقرا ، وبأى غلام ؟ سماه الله وجعله مصدقا بنبية عيسى ، وجعله سيدا وحصورا ، أى محبوسا عن الشهوات عفيفا ، ثم يأتي الشرف الذى لا يدانيه شرف . . إنه شرف النبوة . . ثم يصفه بأوصاف تمتلئ النفس لها سعادة ، فهو من الصالحين .

ويصفه فى سورة مريم فيقول : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ﴾ وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا *^(٤) ماذا قال زكريا عندما بشر بيحيى ؟ ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقرا ﴾ لم يكن هذا الاستفهام استبعادا ، فهو يعلم أن الله على كل شئ قدير ، وأنه سبحانه قد أحاط بكل شئ علما ،

(٣) الآية : ٧ من سورة مريم .

(٤) الآيات : ١٢ - ١٥ من سورة مريم .

(١) الآيات : ٢ - ٤ من سورة مريم .

(٢) من الآية : ٦ من سورة مريم .

وأحصى كل شيء عددا ، إنما كان المقصود بالاستفهام الكيفية التي سيرزق بها الولد ، هل سيرزقان ، وهما على هذه الكيفية ، بلغه الكبر وامرأته عاقر ، أم أنها سيرجعان إلى سن الشباب ؟؟ فجاء الرد من الله تعالى : ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ وفي سورة مريم : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ قال كذلك ، قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ (١) .

فطلب زكريا من ربه أن يجعل له آية وعلامة يستدل بها على أن امرأته حامل ، فقال له الله : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾ أى سيحبس لسانك عن الكلام ، فلا تتكلم إلا بالإشارة ، ثم أوصاه بكثرة الذكر فقال : ﴿ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار ﴾ أى غدوة وأصيلا ، ولكن كيف يحبس لسانه عن الكلام ويؤمر بالتسبيح ؟ أليس التسبيح باللسان ؟ قالوا إن الكلام مع الناس هو الذى كان فيه حبس اللسان أما ذكره لله فتسبيحه إياه بكرة وأصيلا فكان لسانه ينطق به . . وولد يحيى وأعطاه الله من لدنه فضلا عظيما . روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت .

مريم والمسيح

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾
يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٨﴾

المفردات : (الاصطفاء الأول) قبولها محررة لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالرجال و (التطهير) يعنى التطهير الحسى كعدم الحيض والنفاس ، وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد ، والتطهير المعنوى كالبعد عن سفاسف الأخلاق وذميم الصفات (الاصطفاء الثانى) بما اختصت به من ولادة نبي من غير أن يمسه رجل وهو اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل ، بل هى متهيئة ومعدة له وفيه شهادة ببراءتها مما قذفها به اليهود . (القنوت) . الطاعة مع الخضوع !

روى ابن جرير وابن اسحق وابن المنذر : أن هذه الآيات وما بعدها نحو ثمانين آية ، نزلت فى نصارى نجران : إذ وفدوا على رسول الله ﷺ ، وكانوا نحو ستين راكبا ، وخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : أنتم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ! قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا . قالوا لا . قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

قال : أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبي ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ . قالوا : بلى . قال فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ، ثم أبوا إلا جحوداً ! . . . فأنزل الله ﴿ ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر هذه الآيات .

ووجه الرد عليهم - أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادية ذى بدء ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب ، وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحي وشرع الشرائع قبل وجوده ، كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده القرآن ، فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء ، وإنما هو نبي مثلهم . ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل ، وعيسى لم يكن واحداً العقول ثم قال ﴿ إنه لا يخفى عليه شيء ﴾ ليرد على استدلالهم على ألوهية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى شيء مطلقاً ، سواء أكان فى هذا العالم أم غيره من العوالم السماوية ، وعيسى من غير أب إذ الولادة من غير أب ليست دليلاً على الإلهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق ، وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف شاء ، وعيسى لم يصور أحداً فى رحم أمه ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الكتاب وجعله قيماً محكم العبارة محفوظاً من الاحتمال والاشتباه ، وهو الأصل الذى دعا الناس إلى تدبر معانيه والعمل به ، وإليه يرجع فى فهم التشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شيء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ، ولم يمكن الترجيح كالأستواء على العرش وكون روح عيسى روح الله وكلمته ، ثم بين أن الناس فى هذا انقسموا فرقتين : فرقة زائفة يرجعون فى تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم ، لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، وفرقة يقولون آمناً به ونفوض علمه إلى ربنا وقد دعوه ألا يضلهم بعد الهداية ، ويرزقهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة .

وإنما أعدنا هنا ذكر سبب نزول الآيات التى وردت من أول السورة إلى نحو ثمانين آية ، لأن المقام هنا ذكر فيه المسيح وأمه ، والآيات الكريمة نزلت لإثبات وحدانية الخالق جل فى علاه ، ونفى الألوهية عمن سواه وإثبات بشرية المسيح وأمه ، قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء * ﴿ .

فهذا المشهد القرآنى هو المناط الذى تبنى عليه الأحكام من الوحدانية لله الخالق والبشرية للمسيح المخلوق فليكن القارئ على ذكر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ المقصود بالملائكة هنا الأمين جبريل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ (١) ولا يمنع هذا من أن يكون المقصود الملائكة عند إخبارها بالاصطفاء والتطهير ، أما جبريل فهو المقصود بتبشيرها بمولد المسيح عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ . (٢)

وهذه الآية : ﴿ إن الله اصطفاك ﴾ جاءت تخصيصاً لمريم ، بعد تعميم الاصطفاء بقوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ والمقصود بالاصطفاء الأول في الآية الكريمة اختيارها لخدمة بيت المقدس . مع أنها أنثى ، والتطهير هنا حسي ومعنوي ، أما كونه حسياً فقد طهرها الله من دم الحيض والنفاس وغير ذلك ، والمراد بالتطهير المعنوي تطهير قلبها ونفسها من الرذائل وتوابع الأشياء فقد كانت رضى الله عنها ذات همة عالية .

والمقصود بالاصطفاء الثاني : هو أن الله اختصها : بمولد المسيح على غير العادة المتبعة ، فقد خلقه الله في رحمها بدون أن تتزوج ، وقد يكون المقصود بالاصطفاء الثاني ما جاء في الحديث الشريف : (كمل من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة) .

قوله تعالى : ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ هذا توجيه إلهي كريم لمريم أن تقدم الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليها من الاصطفاء والتطهير وذلك بطاعتها لله وسجودها وركوعها في الصلاة ، فالسجود والركوع من أهم الأركان لما فيهما من معنى الخضوع والتضرع لله ، وإنما قدم السجود على الركوع في الذكر لأنه أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد ، ولذا فإن السجود من مواضع استجابة الدعاء .

قوله جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ يطلق الوحي في القرآن الكريم على معان :

- (١) لكلام جبريل للأنبياء كما قال تعالى : ﴿ نوحي إليهم ﴾ (٣) .
 - (٢) وللإلهام كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ (٤) .
 - (٣) وللإلقاء المعنى المراد في النفس كما قال تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (٥) .
 - (٤) وللإشارة كما قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ (٦) .
- فالوحي : تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرها .

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم .

(٢) الآيات : ١٦ - ١٨ من سورة مريم .

(٣) جزء من الآيات : ١٠٩ من سورة يوسف ، ٤٣ من سورة النحل ، ٧ من سورة الأنبياء .

(٤) من الآية : ٧ من سورة القصص .

(٥) الآية : ٥ من سورة الزلزلة .

(٦) من الآية : ١١ من سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ .

المراد بالأقلام السهام التي كانوا يضربون بها القرعة^(١) ومعنى يختصمون أى يتنازعون فى كفالة مريم من الذى يضمها إليه ليربيها ويقوم على رعايتها وشأنها .

ومعنى الآية الكريمة أن هذا القصص الذى قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا ، من الأخبار التى لم تشهدا أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأ فى كتاب ، ولا علمكها معلم ، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك وإلزاماً لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أى وما كنت شاهداً وهم يتنازعون ويختصمون فى كفالتها ولم يتفقوا عليها إلا بعد القرعة والمتنازعون كانوا من الخواص وأهل الفضل والدين ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم فى القيام بشأنها وكفاية مهامها ، إما لأن عمران كان رئيساً لهم ، فأرادوا مكافأته قياماً ببعض ما يجب له من الحقوق ، وإما لأنهم وجدوا فى بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم ، وإما لأنهم رأوا فى ذلك القيام بواجب ديني إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة .

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم لأنه أُمى ، ولم يروها سماعاً عن أحد ، كما يعترف بذلك منكروا نبوته ، لأنه نشأ بين قوم أميين ، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحي أو المشاهدة ، والوحي ينكرونه ؛ فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التى نفاها على سبيل التهكم ، لاستحالتها ونظير هذه الآية قوله : عقب قصة نوح عليه السلام ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾^(٢) وقوله بعد قصة موسى وشعيب : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾^(٣) والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيها وافق فيه القرآن كتبهم : إنه مأخوذ منها وفيما خالفها إنه ليس بصحيح ؛ لأنه خالفها ، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها ، وهذا من المكابرة التى لا تغنى حجة لرد خصم على خصم ، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق ، للأدلة القائمة على نبوة النبى ﷺ ، وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ، وما جاء فيه مخالفاً لما فى الكتب السابقة يعد مصححاً لأغلطها ، لا نقطاع أسانيدها ، حتى إن أعظمها وأشهرها وهى الأسفار التى تنسب إلى موسى عليه السلام ؛ لا يعرف كاتبها ، ولا الزمن الذى كتبت فيه ، ولا اللغة التى كتبت بها أولاً .

[نص على هذا الشيخ المراغى فى تفسيره]

التبشير بالمسيح ..

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ أَشْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾

(٣) من الآية ٤٦ من سورة القصص .

(١) وروى أنها أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة هود .

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

المفردات : (الوجيه) : ذو الجاه والكرامة و ﴿ المهد ﴾ : مقر الصبي حين رضاعه . و (الكهل) من تجاوز الثلاثين إلى الأربعين ، ﴿ الكتاب ﴾ الكتابة والخط ، ﴿ والحكمة ﴾ : العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى نافع العمل ، ويقف بالعامل على نهج الصراط المستقيم لما له من بصر بفقه الأحكام وسر التشريع ، ﴿ التوراة ﴾ : كتاب موسى ، وقد كان المسيح عليماً به يبين أسرارهِ لقومه ويحتج عليهم بنصوصه ، ﴿ الإنجيل ﴾ : هو الكتاب الذي أوحى إليه به ، (والخلق) التصوير والإبراز على مقدار معين وليس الإنشاء والاختراع (الهيئة) : الصورة ، و ﴿ الأكمه ﴾ : الذي يولد أعمى ، ﴿ الأبرص ﴾ : هو الذي به برص أى بياض في الجلد يتطير به ويهرب الناس منه خوف العدوى .

هذه آيات تحدد معالم الحق في شأن المسيح عليه السلام ، فهو مخلوق وهو بشر وأمه كما قال الله تعالى ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ (١) فقد حلَّ الإسلام كل المشاكل بقول الله تعالى : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ تلك حقيقة لا يمارى فيها أحد . إنها كانا يأكلان الطعام ، فمن أكل الطعام فهو جسم إذ الخلية الحية تتكون من هذا الغذاء ، ومن الخلايا تتكون الأنسجة ، ومن الأنسجة تتكون الأعضاء ، ومن الأعضاء تتكون الأجهزة . وهل الإنسان إلا مجموع هذه الأشياء ، ومن الطعام والشراب تكون الإفرازات التي تذهب إلى الأمعاء والمثانة ، هل ينكر أحد على وجه الدنيا أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، ومن كان شأنه كذلك فحتم عليه أن يذهب إلى الخلاء ... تعالى

الله عن ذلك علواً كبيراً ، قال جل شأنه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لى إسرائيل ﴾ (١) .
 والمراد بالكلمة التى بشر بها مريم ، هو قوله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (٢) .
 قوله جل شأنه : ﴿ وجيهاً فى الدنيا والآخرة ﴾ أى أنه ذو قوة ووجاهة عظيمة : فهو فى الدنيا ، له وجاهته فى
 قلوب المؤمنين بالله ، وهو فى الآخرة له شفاعته ومكانته عند الله ، فهو من أولى العزم من الرسل ، وهو من
 المقربين من الله وجنته ورضوانه ﴿ والسابقون السابقون ﴾ أولئك المقربون * فى جنات النعيم ﴿ (٣) . ومن
 صفاته أنه يكلم الناس فى المهد ، أى وهو فى أيامه الأولى بعد مولده ، فقد قال لأمه ساعة الولاده ، ويعد أن
 أخرجه الله من رحمها : ﴿ لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً
 جنياً * فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم
 إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء
 وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً * قال إني عبد الله آتانى الكتاب
 وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبرأ بالحق ولم يجعلنى جباراً
 شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت وأبعث حياً * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه
 يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم
 فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿ (٤) ومعنى قوله تعالى : ﴿ وكهلاً ومن الصالحين ﴾ أى كما كلمهم فى المهد
 كذلك يكلمهم فى سن الكهولة ، وهى من الثلاثين إلى الأربعين (٥) ، ومن الصالحين أى هو صالح من ذرية
 قوم صالحين ، وقد أخبرنا النبى ﷺ عن الذين تكلموا فى المهد ، وقد تعجب عندما تعلم أن أكثرهم تكلموا
 دفاعاً عن الأعراض التى حاولت الكلاب أن تهشها ، وذلك لما للأعراض من قدسية ومكانة .

الذين تكلموا فى المهد

روى الإمام مسلم بن الحجاج : بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لم يتكلم فى المهد إلا
 ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وكان رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعة ، فكان فيها ، فأتته أمه ،
 وهو يصلى ، فقالت : يا جريج . فقال : يا رب أُمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت ، فلما كان
 من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب أُمى وصلاتى ؛ فانصرفت ، فلما كان من الغد
 أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج : فقال : أى رب أُمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا
 تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ،
 فقالت : إن شئت لأفتنته لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعياً كان يأوى إلى صومعته ،
 فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت هو من جريج ، فأتوه فاستنزله وهدموا صومعته ،
 وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زينت بهذه البغى فولدت منك ، فقال : أين الصبى .

(١) الآية : ٥٩ من سورة الزخرف .

(٢) الآية : ٤٠ من سورة النحل .

(٣) الآيات : ١٠ - ١٢ من سورة الواقعة .

(٤) الآيات : ٢٤ - ٣٦ من سورة مريم .

(٥) وذلك عندما بدأ انتقاد الفريسيين والكتبة فى الهيكل .

فجاءوا به ، فقال : دعوني حتى أصل فصلي ، فلما انصرف أتى الصبي فطعن^(١) في بطنه ، وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعي ، قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا نبي لك صومعتك من ذهب !! قال : لا . أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا . وبينما صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، فقال ، اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع ، قال :^(٢) فكأنى انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة في فمه ، فجعل يمصها ، قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنت . . سرقت ! وهى تقول : « حسبي الله ونعم الوكيل » فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ؛ فقال : اللهم اجعلني مثلها ، فهناك تراجع الحديث ، فقالت : حلقى : مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابني مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنت سرقت ، فقلت : اللهم لا تجعل ابني مثلها ! فقلت : اللهم اجعلني مثلها ، قال : إن ذاك الرجل كان جباراً ، فقلت : اللهم اجعلني مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق ، فقلت : اللهم اجعلني مثلها » .

وقد أخرج البخارى هذا الحديث في كتاب الصلاة باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة ، وفي كتاب أحاديث الأنبياء باب ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ الآية .

(لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة الخ) شرح الحديث

المهد هو وطاء الصبي وكل ما يسوى له وقد يكون سريريه ، وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾^(٣) حجر أمه ، وقد ذكر في هذا الحديث الثلاثة : وهم عيسى عليه السلام ، وصبي جريج ، والصبي المتعوذ من الجبار أن يكون مثله ، ولم يذكر غيرهم ، وقد ثبت في الروايات الأخرى تكلم غير هؤلاء ، فمن ذلك ما جاء في صحيح مسلم ، من حديث صهيب في قصة أصحاب الأخدود المذكورة في آخر الصحيح ، وهو : أن امرأة جيء بها لتلقى في النار ومعها صبي يرضع فتقاعست^(٤) ، وقال لها : « يا أمه اصبرى فإنك على الحق » فإذا انضم هذا إلى الثلاثة صاروا أربعة . وروى أحمد والبخاري وابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله عنه : لم يتكلم في المهد إلا أربعة ، فذكر الأولين المذكورين في حديث مسلم ، ولم يذكر الثالث ، وذكر شاهد يوسف ، والصبي الرضيع الذى قال لأمه وهى ماشطة بنت فرعون لما أردوا إلقاء أمه في النار : اصبرى يا أمه فإننا على الحق .

وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبي هريرة ، فإذا ضممننا الاثنين الزائدين اللذين جاء بهما الحديث صاروا ستة ، وذكر الضحاك في تفسيره أن يحكى عليه السلام تكلم في المهد ، أخرجه الثعلبي . فإن كان هذا ثابتاً صاروا سبعة .

(٣) من الآية : ٢٩ من سورة مريم .

(٤) تراجع وقاومت الالتقاء في النار .

(١) أى دفع بأصبعه في بطن الصبي دون إيذاء .

(٢) القائل أبو هريرة - روى الحديث عن رسول الله ﷺ .

وذكر البغوى فى تفسيره أن إبراهيم الخليل تكلم فى المهد أيضاً ، وما ينبغى أن يعلم أنه اختلف فى شاهد يوسف فقيل كان صغيراً ، وهذا أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبیر ، وأخرج عن ابن عباس أيضاً ومجاهد أنه^(١) كان ذا لحية ، وعن قتادة والحسن أيضاً كان حكيماً ، فإذا استبعدنا شاهد يوسف الذى اختلفت الرواية^(٢) فيه ويحى وإبراهيم اللذين لم نتأكد من ثبوت روايتهما ، كان المتكلمون فى المهد خمسة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نوفق بين هذا وبين قوله ﷺ : (ولم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة) ؟ .

وقد سلك العلماء فى الجواب عن هذا مسالك ، فقال الإمام القرطبى « فى هذا الحصر نظر » ولعله ﷺ إنما أوحى إليه أولاً بثلاثة أخبرها ثم بعد ذلك أوحى إليه بما شاء الله تعالى مما أخبر به فى الأحاديث الأخرى^(٣) .

وقال الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « يحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد أما كلام غيرهم من الأطفال ففى غير المهد » ، ولكن يعكر عليه أن فى رواية ابن قتيبة : أن الصبى الذى طرحته أمه فى الأخدود كان ابن سبعة أشهر ومثله لا شك يكون فى المهد ، فما قاله النووى من أن الطفل الذى طرحته أمه فى الأخدود لم يكن فى المهد غير صحيح .

فإن قيل كلام هؤلاء الذين تكلموا فى المهد ؛ أكان بخلق العقل والتمييز الكاملين لهم ؟ أم بإجراء الكلام على ألسنتهم من غير تعقل له ؟ قلنا قد أجاب على ذلك الإمام القرطبى فقال : « ثم كلام عيسى عليه السلام هو بأن الله تعالى خلق له فى المهد ما خلق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى حال كمالهم من العقل والفهم كما شهد القرآن ، وأما غيره فيحتمل أن الله تعالى خلق فيه عقلاً كما يخلقه فى الكبار ، ويحتمل أن الله تعالى أجرى ذلك الكلام يعنى على لسانه وهو لا يعقل ، كما خلقه فى الذراع والخصى مع بقائهما على جماديهما » .

هذه نبذة عن الذين تكلموا فى المهد ذكرناها بمناسبة الكلام عن عيسى ابن مريم فى قوله تعالى : ﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ﴾ .

قوله جل شأنه : ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ﴾ . أداة الاستفهام هنا ﴿ أنى ﴾ ومعناها كيف ، وهذا الاستفهام لا يقصد به الاستبعاد فهى تعلم أن الله على كل شىء قدير ؛ لكن تريد أن تستفهم عن الكيفية ! ولذا جاء الجواب : ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ . أى أنه سبحانه وتعالى الذى خلق الأسباب والمسببات وجرت العادة على ذلك قادر أن يخرق العادة بقدرته فيغنى المسببات عن أسبابها ؛ وإلا فمن أبو آدم ومن أمه ؟

(١) أى أن إبراهيم كان ذا لحية وتكلم فى المهد .

(٢) اختلاف الرواية فى صغره أو كان كبيراً بالغاً عاقلاً .

(٣) نص كلام القرطبى : « ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة » بالحصر فإنه أخبر بما كان فى عمله مما أوحى إليه فى تلك الحال ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به » ص ٩١ ج ٤ .

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾^(١) ، والله جل شأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً .

﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(٢) .

ثم أخذت الآيات بعد ذلك تبين النعم الجليلة التي أنعم الله بها على المسيح ابن مريم قال جل شأنه : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ المراد بالكتاب : الكتابة والخط ، أما الحكمة فهي علم غزير وحكم صواب وعمل موفق ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾^(٣) والتوراة هو الكتاب المنزل على نبي الله موسى وبه أحكام وتشريعات ، والإنجيل هو الكتاب المنزل على نبي الله عيسى ، وبه وصايا وتوجيهات ، وقد جاء الإنجيل مصداقاً لما في التوراة قال تعالى : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل مصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾^(٤) وجاء القرآن الكريم مصداقاً لما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، ومهيماً على جميع الكتب . . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾^(٥) . وقال جل جلاله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾^(٦) .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم ، فصانه عن التحريف والتغيير والتبديل قال جل شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٧) .

قوله تعالى : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله ﴾ .

هذا بيان لتخصيص رسالة المسيح ببني إسرائيل ، فقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، إلا أن رسول الله ﷺ أرسل رحمة للعالمين : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾^(٨) . وقال جل شأنه : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾^(٩) ، وقال ﷺ : « كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحر وأسود ، والمقصود بالأحر غير العرب - وجعلت لى الأرض مسجداً وتربتها طهوراً فأيا رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ونصرت بالعرب بين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة »^(١٠) .

(٦) (الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة المائدة .

(٧) (الآية : ٩ من سورة الحجر .

(٨) (الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٩) (من الآية : ٢٨ من سورة سبأ

(١٠) (رواه الشيخان .

(١) (الآية : ٥٩ من سورة آل عمران . . وسيأتى الحديث عنها .

(٢) (الآية : ٥٧ من سورة غافر .

(٣) (الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٤) (الآية : ٤٦ من سورة المائدة .

(٥) (من الآية : ٤٨ من سورة المائدة .

ثم بعد ذلك عدد القرآن المعجزات وخوارق العادات التي أجزاها الله على يدي عبده ونبيه ورسوله المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين والمراد بالخلق هنا التصوير إذ أن مادة الطين موجودة فكان المسيح يصور من الطين ما هو في هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وحده .

وقد روى أنه عليه السلام لما أعملهم النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خفاش فأخذ طيناً وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه^(١) .

أما إبراء الأكمه وهو الذي ولد فاقد البصر ، والأبرص وهو مرض بالجلد يورث به بياضاً ، فقد كان ذلك أيضاً من معجزات المسيح التي أجزاها الله على يديه ، والمعجزة أمر خارق للعادة . يجريه الله على أيدي الأنبياء تصديقاً لهم مع عجز جميع المخلوقات عن الإتيان بمثله وتأتى المعجزة مناسبة لما اشتهر في عصرها .

فالمصريون لما اشتهروا وبالسحر جاءت معجزة موسى إبطالاً لهذا السحر : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴿^(٢)﴾ . ولما اشتهر الطب في عصر المسيح وأصبح في درجة عالية من التفوق ؛ كانت معجزته إبراء الأكمه فيرتد بصيراً ، وإبراء الأبرص فيعود جلده كما كان جميلاً لا تشويه فيه .

ولما كان العرب قوم فصاحة وبلاغة ، جاء القرآن معجزة باهرة : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(٣) .

والمعجزة إما تكون قولية كالقرآن الكريم وإما تكون تركية كترك إحراق النار لإبراهيم مع وجود الأسباب وزوال الموانع : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿^(٤)﴾ .

حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء لإبراهيم بالإفراج فوراً ، إن يد الله تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها فقد نزع الله تعالى من النار الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضافة والإشراق ، وجمع إبراهيم بين البرودة والسلامة ، إذ لو اقتصرت النار على البرودة لتجمد إبراهيم من شدة البرودة ، ولو اقتصرت على السلامة لتألم إبراهيم من شدة حرارتها ، لكن البرودة مع السلامة جعلته يعيش الأيام التي قضها فيها كأنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقد تكون المعجزة فعلية كعصى موسى ويده ، ومعجزات المسيح ، وحنين الجذع وتسبيح الحصى وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ والإسراء والمعراج ، كل هذه معجزات أجزاها الله على يدي حبيبه ومصطفاه ﷺ .

(٣) الآية : ٨٨ من سورة الإسراء .

(٤) الآيات : ٦٨ ، ٦٩ من سورة الأنبياء .

(١) القرني : ج ٤ ص ٩٤ .

(٢) الآيات : ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .

ولقد جمع الله له من المعجزات ما لا يحصره عد ، ولا يحيط به حد تكريماً له وتشريفاً . . . وسبحان من قال له: ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾^(١) وقال له : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾^(٢) .

إحياء الموتى

كان من المعجزات التي أجراها الله على يدى المسيح عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله ، فقد ورد أنه أحيا فتاة قبل دفنها . قال قومي بإذن الله : فقامت ، ثم ماتت بعد ذلك ، كما أحيا موسى بإذن الله قتيل بنى إسرائيل عندما ضرب ببعض البقرة ، قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون ﴾^(٣) . وهذا كله بإذن علام الغيوب لا شريك له . كذلك جرت سنة القرآن الكريم : أنه يمهد بقصة زكريا ويحيى قبل أن يحدثنا عن قصة المسيح عليه السلام وخلقه ، لأن الله تعالى يعلم أن البشر يربطون المسببات بالأسباب ، وقد يغفلون أن خالق الأسباب قد يخلق بغير الأسباب ، قال يوسف النجار لمريم لما جاءت بالمسيح تحمله « يا مريم إن في النفس لشيئاً . قالت له وما هو قال : أينبت زرع بدون ماء ؟ قالت له : يا يوسف إن الذى خلق الزرع والماء قادر على أن يخلق الزرع بدون ماء .

نرى في سورة آل عمران أن الله تعالى مهد بقصة زكريا فقال ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ . . الخ القصة . ثم قال بعد ذلك : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ﴾ وفى سورة مريم قال تعالى ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾^(٤) الخ الآيات . ثم قال : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾^(٥) وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدنى فرداً وأنت خير الوارثين ﴾^(٦) . الخ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ والذى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾^(٧) . فلا يحسن عاقل أن معجزات الأنبياء من صنعهم ؛ إنما هى خوارق للعادات ، أجراها الله تعالى على أيديهم ، تصديقاً لهم ، مع تحدى الخلق حتى يكون فى ذلك آية بينة ، ودلائل واضحة على صدق الأنبياء . أما خالق المعجزات فهو الله .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾^(٨) . ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾ * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾^(٩) . قال العلماء تحت

(١) الآية : ٨٩ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٩١ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية : ٦٢ من سورة الزمر .

(٤) الآية : ١٠٢ - ١٠٤ من سورة الأنعام .

(١) من الآية : ٧٩ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ١٦٦ من سورة النساء .

(٣) الآية : ٧٢ ، ٧٣ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ٢ من سورة مريم .

(٥) الآية : ١٦ من سورة مريم .

عنوان : (الطبيعة لا تعقل) من كتاب (فى العقيدة الإسلامية والأخلاق) : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادى فى مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة !!

بينما هو فى نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هى خالقة كل ما فى الوجود ؛ أوهى التى تمنح الحياة لكل حى فى الكون !!

فكيف يكون إلهاً ذلك الذى يقهره الإنسان ؛ ومن ثم يعبده ؟ ! إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشرى إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ، وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ؛ وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخرى فأله الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار .

وجاءت الرسائل السماوية لتفسير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما فى الكون . إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ؛ بل تطمح وتعشق العبودية ولهذا راحت فى عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة ، تحت اسم الطبيعة ، وتدعى أنها الخالقة ولنا أن نسأل : ما هى الطبيعة ؟ أهى النار والماء والتراب والهواء ؟ أهى الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟ أهى القوانين التى يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟ أهى الصفات والخصائص التى تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق ؟ ! وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟ أهى الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟ وللحقيقة : فأيا كان الجواب فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟

والإجابة نعرفها جميعاً ، : إنه كائن ناطق له إرادة ، ولهذا يقتضى المنطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع عناصر الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ؛ فهل استطاع أن يخلق أى شئ ؟ وهو جزء من الطبيعة ، وأرقى مافيهما ؟ وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به ، وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ ! لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟ !

والإنسان وهو السيد العاقل المدبر المخترن للمعلومات والمستخر لكل الآلات لم يخلقه ، لأنه مخلوق فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ ! وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ ! وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء مع كل ما يحيط بها من قوانين — الإنسان العاقل ؟ !

إن فاقد الشئ لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تغنى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن

لاسمع له ، والبصر في الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولا أحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له !!

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل في الإنسان ، وبإلغاء قانون السببية وقانون التناقض فالأرض تخلق الأرض ، والشمس تخلق الشمس ، والنبات يخلق النبات ، والإنسان يخلق الإنسان ، وهكذا .. أو قل : إن شئت إن صفات الإنسان تخلق الإنسان وصفات الأرض تخلق الأرض، ويعنى هذا أن المعدوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم البيولوجى بجامعة أمريكا : الحق أنه من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار الكبير، لا يسع الإنسان إلا أن يعترف بأن خالق هذا النظام وتلك الدقة البالغة ، والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه هو الله ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديد ما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها ... ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ؛ فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ ! لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى !! فليس مما يعقله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم ومبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد ، فإن هذا القانون ينادى قائلاً : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً .

ويرد « سانتلانا » على من يقولون بأن الطبيعة هى الخالق قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول؟ وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها ، وكيف بقيت على تألفها ؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ .. هذا وإذا افترضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شىء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التى يمجدها كل واحد فى نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .. هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء .. إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها، فمن باب أخرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأنًا فى درجة الوجود وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع منه وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم مصمم العقل الألكترونى للجمعية العلمية لدراسة الملاحظة الجوية بمدينة لانجلى فيلد : « إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها .. إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ، ولا بد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته : إنه هو اللطيف الخبير .

الإنباء بالغيب

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١) هذه الآية الكريمة جاءت بعد بيان عدد من المعجزات التي أجراها الله على يد المسيح عليه السلام من إحياء الموتى إلى غير ذلك ومعنى ﴿ أَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ ﴾ . أنه كان عليه السلام يخبر الواحد منهم بما أكل وما سياكل : وهذا أيضاً بوحى من الله ، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله . . قال جل شأنه : ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصْدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾^(٢) فإذا كان السيد المسيح ينبئ قومهم بما أكلوا أو بما سياكلون ، فهذا ليس من عندياته وإنما هو بإنباء الله له ، قال جل شأنه : لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٣) وقال عظمت حكمته : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾^(٤) .

قوله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أى أن الشريعة المنزلة على المسيح لا تهدم ما جاء في التوراة ؛ بل هى مكملة ومتممة ، وهكذا رسالات الأنبياء يمهّد سابقهم للاحقهم ويكمل لاحقهم لسابقهم ، فهى كعقارب الساعة تبنى ولا تهدم ، وتضيف وتكمل ، فالثواب تكون الدقائق ، والدقائق تكون الساعات والساعات تكون الليل والنهار وهكذا دواليك .

قول تعالى: ﴿ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِينَ هَرَبُوا مِنْكُمْ ﴾ لقد حرم الله تعالى على اليهود أموراً ؛ جزاء بغيهم قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمِ ذَلِكَ جَزِينَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾^(٥) ، وقال جلّ قدرته : ﴿ فَظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتِ أَحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نَهَاهُ عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾^(٦) فلما بعث المسيح أنزل الله في شريعته تخفيفاً ، فأحل الله تعالى على لسان المسيح بعض أحكام كانت تفيد تحريم أشياء عليهم ، من ذلك أنه أباح لهم لحوم الإبل والسمك والشحوم والعمل يوم السبت .

قوله جل شأنه: ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ المراد بالآية هنا المعجزات التي سبق بيانها من النفخ في الطين بعد تصويره فيكون طيراً بإذن الله وإبراء الأعمى والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله، والإنباء بما أكلوا أو ما سياكلون بإذن الله وإنما ذكرها هنا مجملة في قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ليبنى عليها الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ هذا كقوله ﷺ لسفيان بن عبد الله ، وقد سأله سفيان فقال يا رسول الله : قل لى فى الإسلام شيئاً لا أسأل بعده أحداً غيرك ، فقال له مبعوث العناية الألهية : ﴿ قل

(١) الآيتان : ٢٧ - ٢٨ من سورة الجن . (٢) الآية : ٦٥ من سورة النمل . (٣) الآية : ١٦٠ ، ١٦١ من سورة النساء . (٤) الآية : ١٤٦ من سورة الأنعام . (٥) الآية : ١٨٨ من سورة الأعراف .

آمنت بالله ثم استقم ﴿١﴾ نعم ؛ وهل الاستقامة إلا في طريق الله ؛ إن إقرار المسيح بالربوبية لله دليل قاطع وبرهان ساطع على أنه مخلوق ومولود من رحم أمه، وتلك خصائص صفات البشر، ثم بعد ذلك يؤكد هذا المعنى بأنه عبد الله فيقول : ﴿ فاعبدوه ﴾ كما في قوله جل شأنه : ﴿ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بالدين ولم يجعلني جباراً شقيماً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿٢﴾ . وقد شاءت حكمة الله أن يختم سورة مريم بقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً لئدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ ﴿٣﴾ .

إن الصراط المستقيم هو توحيد الله وعبادته وحده ، فكل المخلوقات من السوس إلى الفرس ومن السماء إلى الأرض ، لو سألتها من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوقة للواحد الديان . كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ورضا كل يائس ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه - وكما قال العلماء : « إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين » ، فإن التوحيد الخالص والعبادة الخالصة أقرب طريق إلى الجنة ﴿٤﴾ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴿٥﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ ﴿٥﴾ .

مع المسيح

* فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ؕ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ؕ

(٤) الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٥) الأيتان الأخيرتان من سورة الشورى .

(١) رواه الشيخان .
(٢) الآيات : ٣٠ - ٣٦ من سورة مريم .
(٣) الآيات : ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .

ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ
وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

المفردات : في الأساس : أحسست منه مكرًا ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسستنا منه خيرا وهل تحس من
فلان بخير وفي الكشف : (أحس) : علم علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ﴿ الأنصار ﴾ :
واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف و ﴿ الحواريون ﴾ : واحدهم حوارى وحوارى الرجل صفيه
وناصره ، (والمكر) تبرير خفى يفضى بالمكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعماله في التدبير
السيء ، وإن كان يستعمل في الحسن والسيء معاً ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا
بأهله ﴾ (١) . . والداعى إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره
لجهله ، فكانت حاجة المرى أو القوام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن
يعرفه ، مثل الوصول إليه . . و (التوفى) : أخذ الشيء وافياً تاماً ، ثم استعمل بمعنى الإمامة ، كما قال
تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ (٢) . و ﴿ تطهيره ﴾ من الذين كفروا : براءته مما كانوا يرمونه بتهمة
أمه بالزنا .

هذا مشهد قرآنى اشتمل على كثير من المواقف الناطقة بالحق والعدل والقسطاس المستقيم ، فقد سبق
من الآيات ما يفيد أن السيد المسيح عليه السلام أعلن كلمة التوحيد عالية ، فقال : ﴿ إن الله ربى وربكم
فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ (٣) . وهذه الركيزة الأولى والقاعدة الأصيلة في رسالات الأنبياء ، فقد بعثوا
لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد فكان رد الفعل لهذه لكلمة أن صدق البعض وكفر البعض ، وهذه عادة
الناس مع الأنبياء ، فقد قال قوم سيدنا محمد ﷺ - كما أخبر القرآن : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال
الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ (٤) ، هذا وقد دخل قومه
بعدئذ في دين الله أفواجا ، وهذا منطوق قوله جل شأنه : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس
يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ (٥) . وقال قوم المسيح عليه
السلام : ﴿ نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ وقال آخرون ما قالوا : من الافتراء الذى
يؤدى إلى الكفر ، قال تعالى : ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم

(٤) (الآيتان : ٤ ، ٥ من سورة ص .

(٥) سورة النصر .

(١) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(٢) من الآية : ٤٢ من سورة الزمر .

(٣) من سورة آل عمران وقد سبق الحديث عنها .

قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً (١) ، وهكذا : آمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فلما علم عيسى منهم الكفر نادى : ﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون ﴾ وهم الأصفياء ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى الناصرون لدينه المعلنون لكلمته ﴿ آمنا بالله ﴾ وصدقنا أنه رب العالمين ، تصديقاً قلبياً جازماً ﴿ واشهد ﴾ يا نبى الله ﴿ بأننا مسلمون ﴾ . وهكذا فالأنبياء جميعاً عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . ثم أضافوا ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ واتبعنا الرسل ﴾ الذى جاءنا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ على ذلك الإيمان والاتباع .

أما الطائفة الأخرى : فقد فكرت ودبرت لقتل المسيح بمساعدة الرومان وكادت له ، ونسيت أو تناست أن يد الله تعمل فى الخفاء ، وأنه سيفسد مكرهم وخداعهم وتدور الدائرة على من مكر ، فإن هناك إلهاً قادراً عالماً علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وثلاثة إذا كن لك كن عليك : البغى ، والمكر والنكث ، قال تعالى : ﴿ يأياها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ﴾ (٢) وقال جل شأنه : ﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾ (٣) وقال تبارك اسمه : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ (٤) .

لقد مكروا ودبروا ليصلوا إلى قتل نبى الله . والله تعالى دبر لينتقم وهو خير من يدبر وينتقم فألقى شبه المسيح على من مكربه ، ورفع المسيح إليه ونجاه ، وقتل صاحب المكر السىء قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٥) .

قال جل شأنه : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ إذ أنه تعالى لا يظلم أحداً ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٦) . ومن خير الله تعالى أنه رفع المسيح روحاً وجسداً قال سبحانه ممثناً عليه : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومظهرك من الذين كفروا ﴾ .

هذه من نعم الله التى أنعم الله بها على المسيح . والوفاء تطلق ويراد بها كثير من المعانى فقد يقصد بها : توفية الأجر لأصحاب الدعوات والرسالات والمجاهدين والمسيح منهم ، بل من أوائلهم ، لأنه من أولى العزم ، وقد تطلق الوفاء ويراد بها النوم قال تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾ (٧) . وقد يراد بالوفاء الموت ، قال تعالى على لسان المسيح يوم القيامة : ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ (٨) . أى فلما أمتنى فى الدنيا قبل القيامة ، كنت أنت الرقيب عليهم . والذى نختره فى قوله تعالى لعيسى : ﴿ إني متوفيك ﴾ أى متوفيك أجرك على ما قدمته هؤلاء القوم من نصيح ، وعلى صبرك على آذاهم ، وما بذلوه فى سبيل قتلك ، لأن الآية سبقت لبيان ما أنعم الله به على المسيح ، بدليل قوله تعالى بعد

(٥) الأيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .

(٦) من الآية : ٤٤ من سورة يونس .

(٧) من الآية : ٦٠ من سورة الأنعام .

(٨) من الآية : ١١٧ من سورة المائدة .

(١) الأيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ٢٣ من سورة يونس .

(٣) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(٤) من الآية : ١٠ من سورة الفتح .

ذلك ﴿ ورافعك إلى ﴾ أى منجيك من مكرهم ، فقد خدعوا ودبروا ، وأنا انتقمت منهم ورفعتك إلى ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أى عما قالوه من سب أمك ورميها بالبهتان العظيم ، فقد قال تعالى :

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ وقد رفع المسيح كما صرح بذلك القرآن الكريم ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ (١) وسينزل إلى الأرض فيكون نزوله علامة من علامات الساعة الكبرى ، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : (لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية) (٢) .

وفي القرآن الكريم آيات بينات ستزيد القول فيها تفصيلاً عندما نأتى إليها في سورة النساء : والزخرف . قال تعالى في سورة النساء ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ (٣) أى قبل موت المسيح هذا تفسير للآية بمعنى أن الإسلام سيعم أرجاء الأرض ، حيث يرفع المسيح راية الإسلام عالية ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ (٤) وقال تعالى في سورة الزخرف ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ (٥) والضمير هنا عائذ على عيسى الذى ذكر في الآيات السابقة ، ومعنى علم الساعة أنه علامة على قربها ، وليس هناك ما يمنع عقلاً ولا شرعاً من نزول المسيح ودعوته الناس إلى الإسلام ، فلا داعى أبداً إلى الجدل العقيم في هذه المسألة ، لأن النصوص في الكتاب والسنة صريحة فضلاً عن كونها صحيحة .

قوله تعالى ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ أى أن الذين اتبعوك فآمنوا بالله رباً وبك نبياً ويقولك لهم ﴿ إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (٦) فهو لاء مؤمنون ، ولا شك أن درجة المؤمن المعنوية والحسية أفضل عند الله من الكافرين ، ذا حكم حكم الله به . وهو مستمر إلى يوم القيامة .

قوله تعالى ﴿ ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ خطاب من الله تعالى إلى الذين اختلفوا مع المسيح وطال عنادهم وكثر جحودهم ، فالله تعالى سوف يفصل بينهم ، فإنه يقضى بالحق وهو خير الفاصلين ، وسيكون الحكم والجزاء عادلاً ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ . وقوله جل شأنه ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ﴾ (٧) ، أى بأنواع البلاء والشدائد والمصائب والهزائم : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٨) .

قوله سبحانه : ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ أى يجزيهم بالأجر غير منقوص كقوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (٩) ، لا يضل في الدنيا ولا يشقى في

(١) من الآية : ١٥٨ من سورة النساء .

(٢) متفق عليه وتتمه الحديث « ولتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » واللفظ لمسلم .

(٣) من الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٤) تتمه الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٥) من الآية ٦١ من سورة الزخرف .

(٦) من الآية : ٦ من سورة الصف .

(٧) ، (٨) من الآية : ١٢٤ من سورة طه .

(٩) من الآية : ١٢٣ من سورة طه .

الآخرة . قال سبحانه : ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ كقوله جل جلاله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) . فالله تعالى إن يعاقبنا فبمحض العدل وإن يثنا فبمحض الفضل : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ . أى إن ما سبق أن ذكرناه لك وتلوانه عليك من قصة امرأة عمران وزكريا ومريم والمسيح وقومه كل هذا جاءك به النبأ اليقين والذكر الحكيم الذى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٣) كقوله تعالى فى سورة هود : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (٤) .

المسيح وآدم والمباهلة

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ المثل ﴾ : الحال العجيبة والشأن البديع ، الامتراء : الشك ، البهلة (بالضم والفتح) اللعنة والدعاء . يقال (بهلة الله) : أى لعنه ثم شاع استعماله فى مطلق الدعاء يقال فلان يبتهل إلى الله فى حاجته : أى يدعوه . و ﴿ القصص ﴾ : تتبع الأثر ومنه قوله تعالى ﴿ وقالت لأخته قصية ﴾ (٥) أى تتبعى أثره ثم استعمل فى الكلام والحديث ، لأن القاص يتبع المعانى ليوردها ، و ﴿ العزيز ﴾ : أى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد . ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة التى لا يساميه فيها أحد .

قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ هذا إخبار من الله جل شأنه ، وخطاب لكل من أوقى شيئاً من التدبر والعقل ، فبالمثل يتضح المراد من القضية ، وضوحاً أجلى من الشمس فى ضحاها ، فإن عيسى : إن كان الله تعالى قد خلقه من أم لا زوج لها ، فهذا ليس أغرق فى العجب ولا أبعد من خلق آدم ،

﴿ (٤) الآية : ٤٩ من سورة هود .

﴿ (٥) من الآية : ١١ من سورة القصص .

﴿ (١) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

﴿ (٢) الآية : ٤٠ من سورة النساء .

﴿ (٣) من الآية : ٤٢ من سورة فصلت .

فآدم لا أب له ولا أم ، إنما خلقه الله من تراب اختلط بالماء ، فصار طيناً ، تغيرت رائحته ، فكان حمأ مسنوناً ، ثم جف فكان صلصالاً ، ثم ازداد جفافاً فكان كالفخار ، ثم سواه الله إنساناً بعد أن أتى عليه حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم نفخ فيه من روحه ، فكان آدم ، قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ (٣) وقال تبارك وتعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (٤) وقال عز وجل : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالقي بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٥) . إن الذي خلق من الطين بشراً سوياً ، قادر بالأولى أن يخلق عيسى بلا أب ، فمن أبو آدم وأمه وما حقيقته ؟ ! أليس الطين الذي لا حياة فيه ، فكيف نستبعد على الإله القادر الذي خلق آدم بلا أب ولا أم أن يخلق عيسى بلا أب ، بل أن عيسى إذا قيس بآدم لكان خلقه أهون ، لقد خلق في زحام عادي ، وكان بشراً عادياً ، وقضى مدة الحمل في بطن أمه ، وتغذى بغذائها وتنفس بتنفسها ، وعاش كما تعيش الأجنة في الأرحام . ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٦) إن الذي خلق آدم بالكاف والنون ، هو الذي خلق عيسى بكلمة منه ، وهي الكاف والنون ، ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ . وكما قال سبحانه في سورة مريم في شأن المسيح : ﴿ ولنجعل له آية للناس ﴾ (٧) قال هنا في سورة آل عمران : ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ وهذا أسلوب تعريض بالمتشككين المترددين في قبول الحق ، وفيه تثبيت لدعوة الحق ، إذ الحق لا يتعدد ، لأنه من الواحد جل شأنه ، وقد كان الصادق المعصوم ﷺ إذا قام من الليل ليصلي أثنى على الله بما هو أهله فقال : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت ولك حاكمت أنت إلهي ولا إله إلا أنت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت » (٨) .

قوله تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ .

كان سبب نزول آية المباهلة وما قبلها من أول سورة آل عمران في وفد نجران : أن النصاري لما قدموا فجعلوا يحتاجون في عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية ، فأُنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم ، كما ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار وغيره : قال ابن إسحق في سيرته المشهورة وغيره : « وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون ركباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس

(٤) الآية : ١٤ / من سورة الرحمن .
(٥) الأيتان : ٧١ ، ٧٢ من سورة ص .
(٦) الآية : ٦ / من سورة آل عمران .

(١) الآية : ٢٠ / من سورة الروم .
(٢) من الآية : ٢ / من سورة الأنعام .
(٣) من الآية : ٢٦ / من سورة الحجر .
(٧) من الآية : ٢١ / من سورة مريم .

(٨) رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما ورواه النووي في الأذكار والكاندهلوى في حياة الصحابة .

ابن حارث ، وزيد وقيس ويزن وابناه ، وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم ، وهم العاقب ، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد كان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارسهم ، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل ، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها ، وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب السابقة ، ولكن حملة ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . . قال ابن إسحق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الخبرات : جيب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب ، قال : يقول من قابلهم من أصحاب النبي ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ «دعوه» فصلوا إلى المشرق ، قال : فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الأيهم ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم ، يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم هو الله ، بأنه كان يحى الموتى ويرى الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً ، وذلك كله بأمر الله وليجعله الله آية للناس ، ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله ، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقنا ، ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والخابسون علواً كبيراً - وفي كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ؛ فلما كلمه الخبران ، قال لهما رسول الله ﷺ : «أسلما» قالا : قد أسلمنا قال : «إنكما لم تسلما فأسلما» قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : «كذبتما : يمنعكما من الإسلام ادعائكما لله ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير» قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما ، فلم يجيبها ، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، ثم تكلم ابن إسحق عن تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك قالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ، ثم تأتينا بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأى فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ قال : والله يا معشر النصارى : لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لا عن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ؛ فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . . فاتوا النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم : قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا فإنكم عندنا رضا ، قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : «اثنوني العشية أبعث معكم القوى الأمين» ، فكان عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً^(١) فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أطاول له ليراني ، فلم يزل يلتبس ببصره ، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : « اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس : قال أبو جهل قبحه الله إن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ؛ قال : فقال : « لوفعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً » . وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعة ، فوعده على أن يلاعنه الغداة . قال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ؛ ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا ، وأقرا له بالخراج^(٢) قال : فقال رسول الله ﷺ « والذي بعثني بالحق لو قالوا لا ، لأمطر عليهم الوادى ناراً » قال جابر : وفيهم نزلت ﴿ ندع أبنائنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ وقال جابر : ﴿ أنفسنا وأنفسكم ﴾ رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ﴿ وأبنائنا ﴾ الحسن والحسين ﴿ ونساءنا ﴾ فاطمة وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم ﴾ أى ما قصصناه عليك يا محمد وأخبرناك به فى شأن عيسى من أنه بشر يأكل كما يأكل البشر ويشرب كما يشربون ، وينام ويمرض ويموت : هذا كله حق ، وهو حق اليقين بل عين اليقين ، فمن كذب به ، فاعلم أن الله عليم بالمفسدين ، وما من إله إلا الله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل (٣) .

قوله تعالى : ﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أى إن أعرضوا عن هذا الحق فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ (٢) واعلم بأن الله

(٣) الآيات : ٧٢ - ٧٧ من سورة المائدة .

(٤) الآية : ١٢٧ من سورة النحل .

(١) أى وقت الهجير يعنى جاء مبكراً وكانوا يؤخرون الظهر عن الهجير .

(٢) يعنى الجزية .

عليهم بهم فإنهم مفسدون في الأرض ، والله لا يحب المفسدين ، ولا يصلح عملهم فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

دعوة إلى أهل الكتاب

قُلْ يَتَّأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾ يَتَّأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ هَئِذَا تُمُتُّ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ أهل الكتاب ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ تعالوا ﴾ : أئق اقبلوا ووجهوا النظر إلى ما دعيتم إليه . ﴿ سواء ﴾ : أى عدل وإنصاف من بعضنا لبعض و ﴿ الإله ﴾ : هو المعبود الذى يدعى حين الشدائد ويقصد عند الحاجة ، لأنه وحده ذو السلطة الغيبية و (الرب) : هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد هنا ماله حق التشريع من تحريم وتحليل ﴿ مسلمون ﴾ : أى منقادون لله مخلصون له ، ﴿ تحاجون ﴾ : أى تجادلون ، و (الحنيف) : المائل عن العقائد الزائفة ، (المسلم) : هو الموحد المخلص المطيع له .

وجه الله تعالى الدعوة إلى أهل الكتاب أن يقبلوا على كلمة حق وعدل وإنصاف ، لا تعصب فيها ولا انحياز ، إنما يكون الغرض من كلمة الحق : أن يعبدوا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئاً ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ؛ يشرع الحلال والحرام ، إنما تكون التبعية فى ذلك للإله المعبود الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور الحكيم ، الخافض الرافع القابض الباسط المحيى المميت المعز المذل الواسع الجامع الباعث الوارث ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ (١) ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ (٢) .

(١) من الآية : ١١٥ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ٤٠ من سورة يوسف .

فإن تولوا عما دعوتهم إليه يا محمد ، فقل أنت وأمتك ﴿ اشهدوا بأننا مسلمون ﴾ ثابتون على دين الحق رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية في قوله : ﴿ ألا نعبد إلا الله ﴾ ووحدانية الربوبية في قوله : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

وهذا القدر متفق عليه في جميع الأديان ، فقد جاء إبراهيم بالتوحيد وجاء به موسى فقد ورد في التوراة قول الله له : (إن الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض ولا تسجد لهن ولا تعبدن) .

وكذلك جاء عيسى بمثل هذا ؛ ففي إنجيل يوحنا : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) . وجاء خاتم النبيين محمد ﷺ بمثل هذا : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ (١) .

وخلاصة المعنى : أنا وأنتم نعتقد أن العالم من صنع إله واحد .

روى عدى بن حاتم قال : «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب : فقال : (يا عدى اطرح عنك هذا الوثن) وسمعته يقرأ في سورة براءة : ﴿ اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ (٢) فقلت له : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال : (أما كانوا يخللون لكم ويحرمون فتأخذون بأقوالهم ؟ قلت نعم : فقال عليه الصلاة والسلام ، هو ذاك) (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ياهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً . فأنزل الله ﴿ ياهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ الآية .

﴿ ياهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ أى أيها اليهود والنصارى : لم تتنازعون وتتجادلون في إبراهيم ويدعى كل منكم أنه على دينه ؟

وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين لما في كتبهم من الثناء عليه في العهد العتيق . وقد أنجى القرآن باللائمة على هؤلاء الذين نسبوا إبراهيم إلى اليهودية أو النصرانية ، وإلى التوراة أو الإنجيل ، مع أن العقل يقضى بأن المتقدم في الزمان — كيف يكون — تابعاً لما سياتى بعده وقد كان إبراهيم قبل أن تنزل التوراة والإنجيل فكيف يكون متقدماً وتابعاً لما بعده ؟! إن هذا دليل على الحمق والسفه ، ولذا قال الله في ختام

(١) آية الكرسي ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٣١ من سورة التوبة أو براءة .

(٣) رواه الشيخان واللفظ لمسلم .

الآية : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره : أجنتم فلا تعقلون ، وقد جاء هذا القول كما جاء في آية أخرى في سورة البقرة : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

معنى ﴿ حاججتم فيما لكم به علم ﴾ أى من أمر عيسى عليه السلام ، وقد قامت عليكم الحجة وتبين أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرط وقال إنه دعى كذاب ، ولم يكن علمكم بمنع من الخطأ .

قال تعالى : ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ أى في شأن الخليل إبراهيم فقد وقعت في جهل مطبق لأحداث التاريخ وقواعد العقائد ، وهذا الجهل أدى بكم إلى الجدل العقيم الذى سللكم في سلك الجاهلية جهلاً مركباً ، فليتكم تستمعون إلى ما قاله الله أصدق القائلين ، هو الذى يعلم وأنتم لا تعلمون .

قال الخليل بن أحمد (٢) : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فأسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك غافل فبهوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك مكابر فاتقوه .

ثم بين الله تعالى حقيقة شأن إبراهيم فقال : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً ﴾ أى مائلاً عن العقائد الفاسدة ﴿ مسلماً ﴾ لله ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿ (٣) .

قال سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليّ منهم أبى و خليل ربي عز وجل) ثم قرأ ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ (٤) .

هذه الآية الكريمة ترد على اليهود والنصارى الذى زعموا كذباً و بهتاناً أن إبراهيم ينتمى في العقيدة إلى دين كل منهم ، فقال الله تعالى : لستم أولى الناس بإبراهيم لأنكم قد انحرفتم عن الجادة ، وكفرتم بالله ورسوله ، بل إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه ونصروه وعبدوا الله وحده ، وهذا النبي محمد - ﷺ - ومن معه من الأنصار والمهاجرين هم أولى الناس بإبراهيم .

(١) الآية : ١٣٥ من سورة البقرة .

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى ، من أعلام القرن الثانى الهجرى أول من صنف علم أوزان الشعر وأحصى لسيبويه عالم انحو المعروف .

والخليل أول من ألف المعاجم في العربية .

(٣) الآيتان : ١٣١ ، ١٣٢ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ٦٨ من سورة آل عمران .

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى هو الذى يتولى الصالحين بالرعاية والنصر المبين ﴿إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١).

حديث عن أهل الكتاب

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ يَتَّأْهِلِ
الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٦٦﴾ يَتَّأْهِلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ
قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ
بِإِذْنِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٠﴾ *

المفردات : ﴿ود الشيء﴾ : أحبه ، ﴿طائفة﴾ : أى جماعة وهم الأخبار والرؤساء ، ﴿والآيات﴾ :
هنا ما يدل على صدق نبوة محمد ﷺ ، ﴿وتلبسون﴾ : أى تخلطون ، ﴿وجه النهار﴾ : أى أوله .
تقول : أتيت بوجه نهار وصدر نهار وشباب نهار . ﴿آمن له﴾ : صدقه وسلم له ما يقول ، كما قال تعالى
حكاية عن إخوة يوسف : ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ (٢) و ﴿الفضل﴾ : الزيادة والمراد به هنا النبوة .

هذا المشهد القرآنى الكريم اشتمل على المواقف المليئة بمكر اليهود ، والقبايح التى كادوا بها للإسلام ،
والحقيقة أن اليهود هم اليهود لو تركت الثعالب مكرها والكلاب نباها والحيات لدغها والشعابين عضها ؛
ما ترك اليهود عداءهم للإسلام ومكرهم به .

قوله تعالى: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ لو هنا مصدرية مثل أن ، ما ، كى ، أن ،
والتقدير تمت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم
من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأق الله بأمره إن
الله على كل شىء قدير﴾ (٣) ، وغفل هؤلاء عن أنهم بذلك يضلون أنفسهم وما يشعرون ، فإن يد الله

(١) الآية : ١٩٦ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية : ١٧ من سورة يوسف .

(٣) الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴿^(١) ثم وجه الله تعالى إليهم هذين السؤالين توبيخاً وتقريعاً :

﴿ ياهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ أى لم الكفر بالآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنتم تشهدون أنها حق ، قال تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾^(٢) .

قوله تعالى لرؤساء اليهود وأخبارهم : ﴿ ياهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ المراد بالحق هنا نبوة الرسول محمد ﷺ وقد كتموها ابتغاء مناصب الدنيا والسيطرة على العامة ، فقد يخشون أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ورسالته فينصرفوا عن رؤسائهم وأخبارهم الذين كانوا يحلون لهم ويحرمون عليهم .

قال تعالى : ﴿ اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾^(٣) كما سبق في حديث عدى بن حاتم ، فابتغاء الباطل من الجاه والرئاسة أضلهم وأعمى أبصارهم ، وهم يعلمون أن النبي ﷺ حق فإنه خاتم الأنبياء قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾^(٤) .

قوله تعالى: ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ .

هذه إحدى الأعياب اليهود ومكروهم بالمسلمين فقد تآمروا فيما بينهم أنهم إذا وأوا أصحاب النبي ﷺ أول النهار ، يؤمنون إيماناً ظاهرياً ، فإذا ما جاء آخر النهار كفروا ، وظنوا أنهم بذلك سيلقون الشكوك في قلوب

(٣) من الآية : ٣١ من سورة التوبة .

(٤) الآيات : ١٥٥ - ١٥٨ من سورة الأعراف .

(١) الآيتان : ٥٠ ، ٥١ من سورة النمل .

(٢) آخر آية في سورة الفتح .

المسلمين ، فيرجعون عن دينهم وينقلبون كفاراً ، إذ قد يظن ظانّ أنهم أهل الكتاب ، ويعرفون أكثر مما يعرف المسلمون .

ثم قال بعضهم لبعض ﴿ وَلَا تَوَدُّوا إِلَّا لِمَنِ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أى لا تصرحوا لأحد بما فى التوراة إلا إذا كان يهودياً، وذلك حتى لا يؤتى أحد من العلم مثل ما أوتيتم، وحتى لا يحتج عليكم أحد بما أوتيتم من عند الله، فيقيم عليكم البراهين بأنكم خاطئون فى تكذيبكم برسالة محمد ﷺ ونبوته ، إذ كيف يكون ذلك ! ؟ وقد ورد ذكره فى التوراة والإنجيل ، فرد عليهم المولى تبارك وتعالى قائلاً : ﴿ قُلْ إِنْ أِهْدَى اللَّهُ هَدًى لِّأُمَّةٍ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى ما أنزله إلى حبيبه ومصطفاه ، قال جل شأنه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدَى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿ ١ ﴾ ورد عليهم مولانا تبارك وتعالى قائلاً ﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ومن فضله تعالى أن تفضل على نبي هذه الأمة بجعل رسالته عامة للعالمين ، وأحل له الغنائم ولم تحل لأحد قبله ، وجعل الأرض مسجداً وترتبتها طهوراً ، تخفيفاً على أمته ، ونصره بالرعب بين يديه مسيرة شهر ، وأعطاه الشفاعة ، وجعله أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وجعله الماحى الذى محاه الله به الشرك ، والعاقب الذى لا نبي بعده ، فهو سبحانه وتعالى واسع الرحمة عليم بما فى القلوب ، فقد اطلع على قلوب أهل الأرض فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل الأرض ، فاختره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاخترهم لصحبته ، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢) قال المفسرون المقصود بالناس هنا محمد ﷺ وأمته .

مواقف لأهل الكتاب

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدَيْنَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَاحْتَخِلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

(١) آخر آيات سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣

(٢) من الآية : ٥٤ من سورة النساء .

المفردات : ﴿ تأمنه ﴾ : من أمنتته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنتته بكذا وعلى كذا والمراد بقنطار : عدد كثير ، و ﴿ بالدينار ﴾ : العدد القليل ، و ﴿ الأميون ﴾ : هم العرب ، و ﴿ السبيل ﴾ : المؤاخذة والذنب ، و ﴿ بلى ﴾ كلمة تقع جوابا عن نفى سابق لتثبته والعهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان الالتزام من طرفين يقال عاهد فلان فلانا عهدا . ﴿ ويشترون ﴾ : أى يستبدلون والمراد بالعهد عهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون ، والمراد بالآيمان : الآيمان الكاذبة . والضمن القليل : هو العوض الذى يأخذونه أو الرشا ، وجعل قليلا لأن كل ما يفوت الثواب ويوجب العقاب فهو قليل ، و ﴿ لا خلاق لهم ﴾ : أى لا نصيب لهم . ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ : أى يغضب عليهم . ﴿ ولا ينظر إليهم ﴾ : أى يسخط عليهم ويستهن بهم . ﴿ ولا يزكيهم ﴾ : أى لا يثنى عليهم .

بعد أن بين سبحانه خيانة أهل الكتاب فى الدين ، وكيدهم للمسلمين ليرجعوا عن دينهم ، وصدهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها ، زعما منهم أنهم شعب الله المختار ، وأن الدين الحق خاص بهم ، لا يعدوهم إلى شعب آخر ولا إلى أمة أخرى ، أردف ذلك بذكر حال طائفة أخرى منهم ، تخون الأمانات وتستحل أكل أموال الناس بالباطل تأويلا للكتاب وغرورا فى الدين .

﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ﴾ أى ومن أهل الكتاب طائفة تشاكس المسلمين وتكيدهم ليرجعوا عن دينهم ، ومنهم طائفة أخرى تستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم : زعما منهم أن الكتاب لم ينهم إلا عن خيانة إخوانهم من بنى إسرائيل والخلاصة : أن أهل الكتاب طائفتان :

١ - طائفة تؤمن على كثير وقليل كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية من ذهب خالص فأداها إليه .

٢ - طائفة أخرى تخون الأمانة فإذا استودعتها القليل حجبته ولا تؤده إليك إلا إذا أدمت الوقوف على رأسها ، ملحا فى المطالبة أو لاجئا إلى التقاضى والمحاكمة ، ومن هؤلاء كعب بن الأشرف ^(١) استودعه قرشى دينارا فجحده ثم بين السبب فى فعلهم هذا فقال : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ أى أن ذلك الترك لأداء الأمانة من قبل أنهم زعموا أنه لا تبعه ولا ذم فى أكل أموال العرب ، وخلاصة هذا أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له ، بل هو مبغض عنده محتقر لديه فلا حقوق له ولا حرمة لماله ، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه ، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين ، واحتقار المخالف الذى يستتبع اهتضام حقوقه . روى بن جرير : أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم الثمن ^(٢) فقالوا : ليس علينا أمانة لا اقتضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم . فرد الله عليهم

(١) أو فتاح بن عازوراء .

(٢) أى طلبوا ثمن ما باعوه لهم من قبل .

بقوله : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أى وهم يعلمون كذبهم فى ذلك ، لأن ما جاء من عند الله فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأمين ، ولا أكل أموالهم بالباطل ، ﴿ وهم يعلمون ﴾ ذلك حق العلم ، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ولجأوا إلى التقليد ، وعدوا كلام أخبارهم ديناً ، وهؤلاء قالوا فى الدين بالرأى والهوى ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ليؤيدوا آراءهم وقد وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدعون .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير ، قال : لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب - إلى قوله - ليس علينا فى الأمين سبيل ﴾ قال النبى ﷺ : كذب أعداء الله ، ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ أى بلى ، وعليكم فى الأمين سبيل ، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل ، واثمنتك على شىء ، وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له فى حينه ، دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحكمت الشريعة .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيلياً وجب الوفاء له ولا يجب الوفاء لغيره .
والعهد نوعان :

- ١ - عهد المرء لأخيه فى العقود والأمانات كما تقدم .
- ٢ - عهد الله تعالى ، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله .
واليهود لم يفوا بشىء منها ، إذ لو وفوا بعهد الله لآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوا النور الذى أنزل معه ، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه .
وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد - المتقين بالإخلاص والغدر - محبة تعالى ورحمته لهم فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا إيماء إلى : أن الوفاء بالعهود واتقاء الإخلاف فيها وفى سائر المعاصى والخطايا هو الذى يقرب العبد من ربه ، ويجعله أهلاً لمحبة ، أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله .
وفى هذا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى ، وهى الدعامة الأساسية فى كل دين قويم .

﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ . أى أن الذين يتعاهدون بعهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما سيتعاهدون عليه ويتعاهدون ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ،

وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ويتقوه في جميع الأمور ، بما حلفوا عليه من قوله لهم : ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه إلى قوله - ثمناً قليلاً ﴾ هو العوض أو الرشا - أولئك لا نصيب لهم في منافع الآخرة ونعيمها ، ويغضب عليهم ربهم ولا ينظر إليهم ، ولا يثنى عليهم يوم القيامة ، ولهم عذاب أليم هو الغلبة في الألم قال القفال : « هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا ، فإنما ذلك لسخطه عليه ، وقد يأمره بحجبه عنه هو ويقول : لا أكلمك ولا أرى وجهك ، وإذا جرى ذكره لم يذكر بالجميل » ا. هـ . وصيغة القول : إن الله توعد الناكثين للعهد المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم بالعذاب الأليم ، وبأنهم يكونون في غضب الله بحيث لا ترجى لهم رحمة ، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة .

ولم يتوعد الله مرتكبي الكبائر من الزنا وشاربي الخمر ولا عبى الميسر وعاقى الوالدين بينما توعد ناكثي العهود وخائني الأمانات ، لأن مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد التي لأجلها حرمت تلك الجرائم . فالوفاء بها آية الدين البينة ، والمحور الذي تدور عليه المصالح العمرانية ، فمتى نكث الناس في عهودهم زالت ثقة بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وأساس النظام ، والإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة والنكث بالعهد ، ألا ترى أن النبي ﷺ جعله علامة النفاق فقال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) (١) .

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : (لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له) فما بال كثير من المسلمين - حتى المتدينين منهم - استهانوا بالعهود . وأصبحوا لا يحفظون الأيمان ويرون ذلك شيئاً صغيراً ، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد ، ويكبرون أمر المعاصي التي لم يتعودوها لعدم الإلف والعادة فقط ، مع أنها دون ذلك عند الله كما تدل عليه هذه الآية . أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحبي بن أخطب ؛ حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله ﷺ ، وحكم الأمانات وغيروها وأخذوا على ذلك الرشا .

وروى البخاري وغيره أن الأشعث بن قيس قال : « كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحد فيها ، فقدته إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ألك بينة ؟ قلت لا : فقال لليهودي احلف فقلت : يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي . فأنزل الله ﷻ : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله ﴾ الآية .

قال الحافظ ابن حجر والآية محتملة لأن يكون هذا سبب النزول أو ذاك ، والعمدة في ذلك ما ثبت في الصحيح .

أن الأيمان في الإسلام لها خطورتها فعلى المسلم أن يعلم أن أشد الأيمان خطورة عند الله اليمين الغموس وهو الذي يتعمد صاحبه الكذب فيه كاليمين أمام القاضي ، وسمى غموساً لأنه يغمس صاحبه في

نار جهنم ، وعلى الخالف أن يعلم أن اليمين يجب مراعاتها من ثلاث جهات :

- ١ - إذا حلف فلا يحلف إلا للضرورة .
- ٢ - وإذا حلف فلا يحلف إلا بالله .
- ٣ - وإذا حلف وجب عليه أن يراعى الصدق في يمينه .

قال ﷺ : « اليمين الغموس تذر الديار بلاقع » ^(١) أى خراباً يباباً لا خير فيها ولا بركة في مالها أو أهلها .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أمرنا بالصدق ، وحذرننا من الكذب ، ففي حديث صحيح الثبوت صحيح العبارة ، يقول الهادى البشير : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) ^(٢) .

قال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك .

قيل لرسول الله ﷺ أياكون المؤمن كذاباً قال : لا .

وأشد الكذب ، الكذب على الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى كَذِباً ﴾ ^(٣) .

وقال ﷺ : (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ * والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴿ ^(٤) .

من كذبهم وافترائهم على الله

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِأَلْكَلَبِ لِيَحْسُبُوهُ مِنَ الْكَلَبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكَلَبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات : ﴿ يلوون ألسنتهم ﴾ من اللى وهو اللف أى يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة .

﴿ وإن منهم ﴾ جماعة من أحبارهم وعلمائهم ، يفتلون ألسنتهم ويميلونها عن الآيات المنزلة : بأن يزيدوا في كلام الله أو ينقصوا أو يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويقرأوا كلامهم بنغم وترتيل ؛ فيوهما الناس

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) من الآيتين : ٣٧ من سورة الأعراف ، ١٧ من سورة يونس .

(٤) متفق عليه .

(٥) الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ من سورة الزمر .

بأنه من التوراة ، وأن الكتاب جاء بذلك ﴿ لتحسبوه من الكتاب ﴾ والواقع أنه ليس منه ، ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ ويفجرون ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنه ليس من عند الله ؛ ولكن من عند الشيطان والهوى .
فهم لا يعرضون ولكن يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم وفرط جراتهم وغرورهم .

الرد على أهل الكتاب في إشراكهم بالله

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المفردات : ﴿ ربانين ﴾ نسبة إلى الرب وهو المتشدد في الدين الملتزم طاعة الله ﴿ أربابا ﴾ جمع رب .
قيل إن رافع القرظي من اليهود ، ورئيس وفد نجران من النصارى قالوا لرسول الله ﷺ : أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : (معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بغير عبادة الله ، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني) فتزلت هذه الآية .

والآية في جملتها تكذيب لأهل الكتاب الذين يعتقدون عبادة عيسى والعزير .

والمعنى لا يصح لبشر يمن الله عليه بالكتاب ، ويهديه إلى الحكمة والصواب في فهم ما أنزل الله عليه ويؤتيه النبوة والرسالة ، ثم بعد هذا يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله : أى اعبدوني وحدي أو اعبدوني مع الله ، فهذا هو الشرك بعينه ؛ ولكن يقول : كونوا أيها الناس ربانين متمسكين بالدين مطيعين لله أتم طاعة ، بسبب كونكم تعلمون الكتاب لغيركم ، وبسبب كونكم تدرسون وتعلمونه ، ولا يعقل أن يأمركم باتخاذ الملائكة والأنبياء آلهة تعبد من دون الله ؛ كما فعلت اليهود مع عزير والنصارى مع المسيح !! أو يأمركم هذا النبي بالكفر والفسوق ، والعصيان بعد أن أرسل هادياً لكم وكنتم مسلمين منقادين لله بالطبيعة والفطرة التي فطر الناس عليها ؟

ويؤخذ من هذه الآية أن التعليم الديني والدراسة للإسلام إن لم تكن مصحوبة بالعمل والطاعة كانت وبالأعلى صاحبها بل كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه .

الميثاق المأخوذ على أهل الكتاب

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا أَتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفْغَرِ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

المفردات ﴿أخذ الميثاق﴾ قبوله ، الميثاق : العهد المؤكد ، ﴿لأقرار﴾ قر الشيء إذا ثبت ولزم قراره مكانه وأقر بالشيء إذا نطق بما يدل على ثبوته ﴿إصرى﴾ الإصر : العهد المؤكد الذى يمنعه من التهاون .

هذه السورة من أولها إلى هنا يدور معناها على إثبات رسالة محمد ﷺ ؛ الذى يجب أن يؤمن به الكل ، وأن دينه الحق وهو الإسلام ، وكل من تقدمه من الأنبياء والأمم قد أخذ عليهم الميثاق : أن يؤمنوا به إذا أدركوه فما بال أهل الكتاب اليوم قد نقضوا العهد وأعرضوا عن هذا الدين .

ومعنى الآيات : واذكر يا محمد وقت أن أخذ الله الميثاق على الأنبياء ، وتدخل أمهم معهم تبعاً لهم ؛ مهما آتيناكم أيها المخاطبون من كتاب وحكم ونبوة ، ثم جاءكم رسول هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله مصداقاً لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .

قال الله تعالى لمن أخذ عليهم الميثاق أقدرتم وقبلتم ذلك الذى ذكر من الإيمان بالرسول المصدق لما معكم ونصرتموه . أقبلتم عهدى وميثاقى المؤكد ؟؟

قالوا : أقررنا ونطقوا بما يدل على ثبوته ؛ قال تعالى : فليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم جميعاً لا يغيب عن علمى شيء .

﴿فمن تولى﴾ بعد هذا الميثاق المأخوذ قديماً ، ولم يؤمن بالنبي المبعوث فى آخر الزمان المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كما حصل من أهل الكتاب المعاصرين للنبي ﷺ ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الخارجون من ميثاق الله الناقضون عهده .

وإذا كان الدين واحداً والرسول متفقين فى الأصول العامة للأديان ، فما بال أهل الكتاب المعاصرين ؟ أيتولون بعد هذا البيان ؛ فيبغون غير دين الله الذى هو الإسلام . والله استسلم من فى السموات والأرض ، وخضعوا له وانقادوا لتصرفه بالتكوين والإيمان هنا ؛ إذ هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون له فكل ما يخل بالناس إن كان عن رضى فهم طائعون ، وإن كان عن غير رضى فهم كارهون ، وإلى الله المرجع والمآب .

إيمان المؤمنين بكل الأنبياء

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أَوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

المفردات : أى ﴿ قل ﴾ يا محمد أنت وأمتك ﴿ آمنا بالله ﴾ الواحد الأحد ﴿ وما أنزل علينا ﴾ نحن الأمة
المحمدية ، وقدم الإيمان بالله على الإيمان بالمتزل ، لأنه الأصل والأساس ، وقدم المنزل علينا على المنزل على
الأنبياء السابقين لأنه هو الأصل ، فهو مصدر المعرفة ، وما سواه قد غير وبدل ؛ فلا يصلح أساساً للمعرفة ،
والمنزل علينا هو القرآن الكريم ، ﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ أولاده
﴿ وما أوتى موسى ﴾ من التوراة ﴿ وعيسى ﴾ من الإنجيل ﴿ والنبيون ﴾ كداود وسليمان وغيرهم ممن
لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى .

لقد أمرنا الله بشيئين : الإيمان بالله والنبين إيماناً لا نفرق فيه بين أحد منهم ، بل نؤمن بالكل على أنه
نبي مرسل ، من قبل المولى جل شأنه لأئمة يهديها سواء السبيل ولا نفعل كما فعل أهل الكتاب : يؤمنون
ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ متقادون ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ﴾ الذى هودين
الأنبياء ، والدين الذى ارتضاه الله لعباده ، ومن يتبع غيره ﴿ فلن يقبل ﴾ منه قطعاً ﴿ وهو فى الآخرة من
الخاصرين ﴾ الذين خسروا أنفسهم ولم يزكوها بالإسلام فى الدنيا والآخرة .

حكم الكفر بعد الإيمان

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

ورد فى سبب النزول : أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت النبى ﷺ فى

كتابهم ، وأقروا بذلك ، وشهدوا أنه حق ، ولذا كانوا يستفتحون به على المشركين ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب ، وأنكروه وكفروا به بعد إيمان ، وروى في أسباب النزول عدة روايات أخرى في الذين ارتدوا بعد إسلامهم^(١) .

﴿ كيف يهدي الله قوماً ﴾ كهؤلاء اليهود والنصارى ﴿ كفروا بعد إيمانهم ﴾ وشهادتهم ﴿ أن الرسول حق ﴾ وجاءتهم الآيات الواضحات على صدقه وصدق رسالته .

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ لأنفسهم فهم قد عرفوا الحق ، وتنبكوا عنه فلا أحد أظلم لنفسه منهم ، و ﴿ أولئك جزاؤهم ﴾ أنهم مطرودون من رحمة الله و ﴿ أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ فالملائكة يدعون عليهم بالطرد من رحمته وكذلك الناس كلهم .

﴿ خالدين ﴾ في النار ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ يمهلون بل سيؤخذون أخذ عزيز مقتدر هذا جزاؤهم ، إلا من تاب منهم بعد ذلك ، ورجع إلى الله وأصلح عمله وقلبه ﴿ فإن الله غفور ﴾ لما سبق ﴿ رحيم ﴾ بعباده حيث يقبل توبة التائب .

أصناف الكفار

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَاقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلٌ ۖ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۚ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

هؤلاء الكفار ثلاثة أصناف : صنف كفر بعد إيمانه ، ثم تاب توبة صادقة من بعد ذلك ، فأولئك يقبل الله توبتهم إنه هو الغفور الرحيم .

وصنف كفر بالله ثم تاب ورجع ، ثم عاد إلى الكفر ، فلن تقبل توبته ، وقيل هم الكافرون يتوبون عن بعض الذنوب مع بقائهم على الكفر ، وهذا هو معنى ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ .

وصنف كفروا بالله وماتوا وهم كفار فلن يقبل من هؤلاء فدية مهما كثرت ولو كانت ملء الأرض ذهباً ، ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم في الآخرة من ناصر ولا شفيع ﴾^(٢) .

(١) روى القرطبي عن ابن عباس : أن رجلاً من الأنصار أسلم ثم ارتد والحق بالشرك ثم ندم ؛ فأرسل إلى قومه : سلوا لي رسول الله ﷺ فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائي - القرطبي ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن : نزلت في اليهود كفروا بعباسي والانجيل ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن ، وقال أبو العالية : نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم .

الإنفاق أيضاً

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

بعد أن حاج الله أهل الكتاب ، وأبان أنهم يلبسون الحق بالباطل ، وأنهم لم يؤمنوا بالله بل يكتمون الحق ، وهم يعلمون أن محمداً ﷺ ، رسول الله قد بشر به في التوراة والإنجيل ، بعد هذا : أراد أن يدلل على عدم إيمانهم بشح نفوسهم وبخلهم بالإنفاق . . والإنفاق لعمري أكبر دليل على صدق الإيمان .

وأنهم لن يصلوا إلى البر ، ولن يكونوا يارين بالله إلا إذا أنفقوا مما يحبون ومن كريم ما يملكون ، أما وقد شحت نفوسهم بردىء المال ؛ فضلاً عن كريمه ، فهم بعيدون عن الصدق في دعواهم الإيمان والطاعة لمولاهم ، ﴿ وما تنفقوا من شيء ﴾ سواء أكان كريماً أم رديئاً ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ولا يخفى عليه إخلاصكم ورؤياكم .

